المكتبة الروائية

دي . اتش . لورانس

الثعلب

ترجمة : زكي الاسطة

مدونة أبو عبدو

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

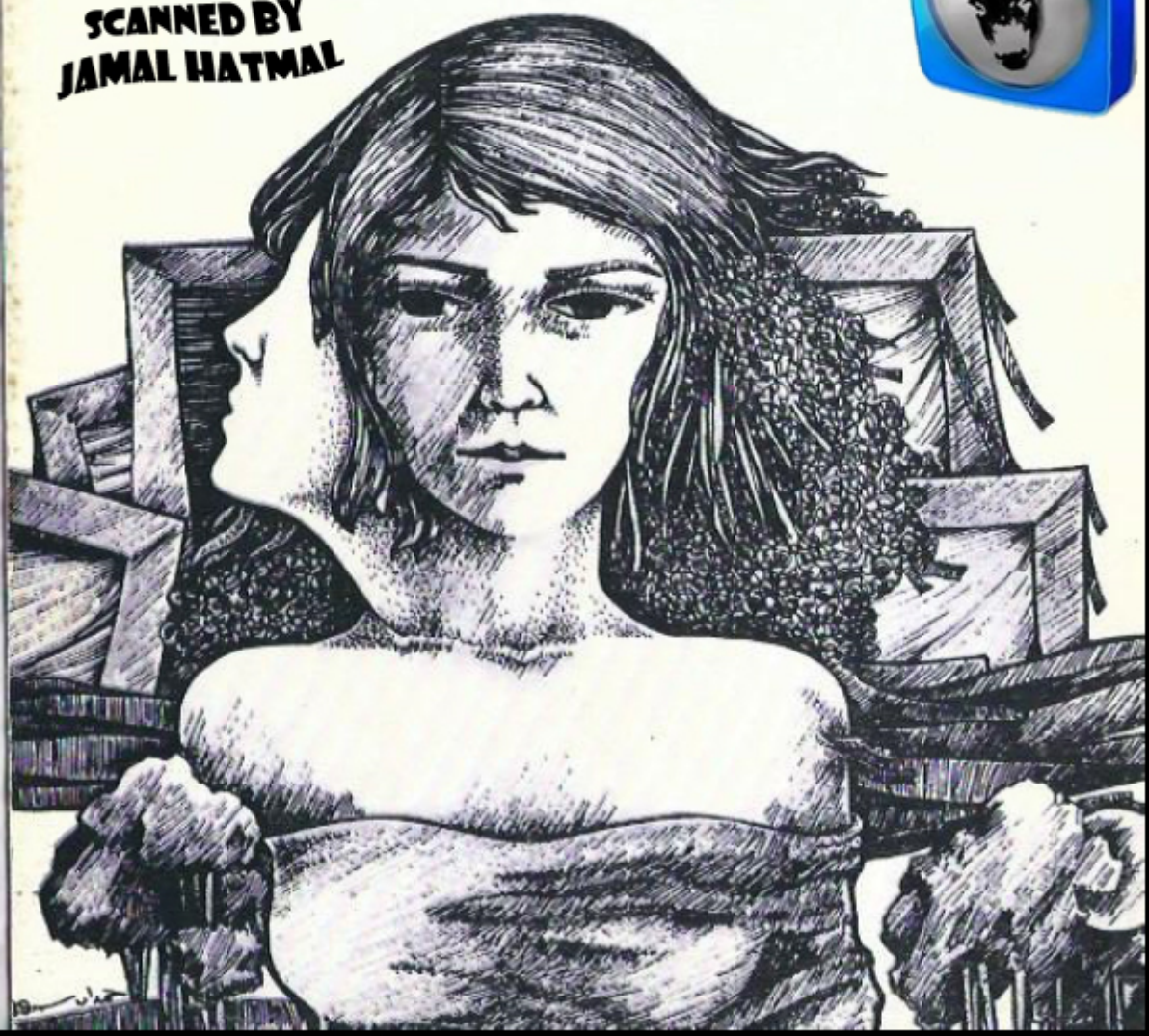

الثعلب

هذه هي الترجمة الكاملة لكتاب :

THE FOX
D.H.LAWRENCE

★ دي . إتش . لورانس :

الثعلب

★ ترجمة زكي الأسطة
★ جميع الحقوق محفوظة
★ الطبعة الأولى ١٩٨٩
★ الناشر : دار الحوار للنشر والتوزيع

سورية ـ اللاذقية ص ب ١٠١٨ ـ هاتف ٢٢٣٣٩

دي . إتش . لورانس

الثعلب

رواية

ترجمة زكي الأسطة

مدخل إلى عالم دي . إتش . لورانس

في الحادي عشر من أيلول عام ١٨٨٥ وفي بلدةٍ منجمٍ للفحم تُدعى «إيستوود» في ريف مقاطعة «نوتنغهام» (انكلترا) ، أبصر ديفيد هربرت لورانس النور لأول مرة . وفي الثاني من آذار عام ١٩٣٠ وفي مَصَحٍّ في فينيس (فرنسا) انطفأ النور في عينيه إلى الأبد متأثراً بالسُّلّ ، الداء الذي أنشب في دي . إتش . لورانس أظفاره منذ صباه . وبين هذين التاريخين ، عاش لورانس حياة قصيرة نسبياً (٤٤ عاماً) ولكنها كانت زاخرة بالحيوية والنشاط ، فقد خَلَّفَ كمية مذهلة من الأعمال الأدبية من روايات وقصص وقصائد ومسرحيات ومقالات وكُتُب رحلاتٍ وترجمات ورسائل ، واستطاع بصمود فذٍّ ، وعلى الرغم من الإحباطات المستمرة التي لاحقته حتى قبل موته بعام واحد ، أن يثبت خطاه في الرواية الإنكليزية بعمقٍ دَفَعَ ناقداً مثل «وولتر آلن» إلى اعتباره الكاتب الوحيد الذي يقف نظيراً للكاتب الانكليزي الشهير ذي الأصل الإيرلندي «جيمس جويس» على الرغم من تَباعُدِهِمَا في الأسلوب تباعداً يجعل المقارنة مستحيلة بين الطرفين («الرواية الانكليزية» ـ وولتر آلن ـ دار نشر بيليكان ١٩٨١ ـ صفحة ٣٥٧) .

كان والده عاملَ منجمٍ أُمِّيّاً ، بَيْدَ أنّه كان يتقن سرد القصص ، وسكيراً ، بَيْدَ أنه كان مفعماً بوعيٍ حيويٍّ استثنائي إزاء الحياة والعيش الطبيعيين .

وكانت والدتُه مُعَلِّمَةَ مدرسةٍ سابقةً تنحدر من طبقة متوسطة تعلو طبقة والده اجتماعياً ، وكانت قد تزوجت والده عن حب غير أنها لم تلبث أَنْ مُنِيَتْ بخيبة أمل هائلة من جَرَّاءِ خشونة زوجها ، عامل المنجم هذا ، لا سيما وأنها كانت تطمح إلى

حياة أكثر رقياً من حياة عمال المناجم ، فانصرفت يائسة ، بعد حياة عاصفة مُشْتَرَكة مع هذا الزوج وبعد موت ابنها الأكبر إرنست ، إلى ابنها ديفيد (وكان ترتيبه الرابع بين أطفالها الخمسة) ، واخْتَصَّتْهُ بكلّ ما افتقدته في أبيه من حب ، حتى تجاوزت العلاقة بينهما الحد الطبيعي للعلاقة بين الأم وابنها واقتربت من الأوديبية في حب جنوني .

ولكنّ لورانس في الواقع يَدينُ لطموحات أمه تجاه أطفالها في تلك الفترة ، فقد حبّبَتْهُ المواظبةُ على حضور الكنيسة ومدرسة الأحد ، بدَفْعٍ من أمه ، معرفةً شاملةً بالانجيل الذي تركت لغته المجازية وأسلوبه أثراً على لورانس في جميع رواياته الأخيرة . إلاّ أنه فَقَدَ إيمانه بالمسيحية تماماً وبدأ يطور ديناً خاصاً به يوقر جميع الآلهة ويبجل الطبيعة الحقيقية للانسان كان يكره تأثيرات النمو الحضاريّ والصناعي في انكلترا ، ويشمئزّ من المادية والتمسك بالتقاليد ، ويزدري جميع الايديولوجيات والأنظمة التي كانت تُبْعِدُ الناس عن الأخلاقيات كما كان يفهمها هو ، وهي الصدق الجنسي ، أي صدق الرجل إزاء رجولته وصدق المرأة إزاء أنوثتها . وفي رسالة إلى صديقه إرنست كولنجز كتب لورانس يقول بأنّ ديني العظيم هو الإيمان بالدم والجسد واعتباره أكثر حكمة من العقل . فنحن قد نخطىء في عقولنا ، لكنّ ما يحسه دمُنا وما يؤمن به ويقوله صحيح دائماً . وكل ما أريده هو طاعةُ دمي مباشرة دون تَدَخُّلٍ سخيف من قِبَلِ العقل أو الخلق أو ما شابه» . وهنا يجدر بنا كقراء أن نسأل :

إلى أيّ مدىً يَدِينُ دِينُ لورانس الجديد للعالم النفسي الأشهر سيغموند فرويد» (١٨٥٦ - ١٩٣٩) ؟؟؟

وبعبارة أخرى : أليس لورانس فرويدياً إلى حد بعيد ؟؟

إنّ في إمكان أيّ قارىء قرأ لورانس أنْ يرى عَيْنَيْ الجنس الحمراوين تلمعان خلف السطور ، وأنْ يسمعَ صهيلَ الجنس عبر كلماته ، أنْ يلمس لَمْسَ اليدِ أصابع الجنس وهي تحرك شخصياته ، وأنْ يشعر بالنوازع الجنسية وهي تجيش خافتة إلى حدّ الرقّة والنعومة أحياناً ، ومرتفعة إلى درجة العُواء أحياناً أخرى بين ضلوع شخصياته . لكنّ الغريبَ في الأمر أنّ لورانس هاجم فرويد مراراً وتكراراً رافضاً الفرضية الأوديبية صراحةً ، على الرغم من أن رواية لورانس نفسه «أبناء وعشاق»

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

هي رواية أوديبية محضة ، وعلاقة لورانس نفسه مع أمه اقتربت من الأوديبية في حب جنوني .

وماذا عن فريدريك نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠) ؟؟

لقد هاجم هذا الفيلسوفُ والشاعرُ الألماني ، صاحبُ كتاب «هكذا تكلم زرادشت» ، وبحدة كلَّ الأفكار والمُثل في عصره : المسيحية ، الأخلاق التقليدية ، التعاطف مع الضعفاء والعاجزين ، والعقلانية . ولا شك أن فلسفته المناهضة للمسيحية ، الديونيسية (نسبة إلى ديونيسوس إله الخمر في الميثولوجيا الاغريقية) والتي تؤيد الغرائز الحيوانية عند الانسان ضد المذهب العقلي الأبولي (نسبة إلى أبولّو إله الشعر والموسيقى والجمال الذكريّ عند الإغريق) قد ساهمت بطريقة أو بأخرى في تشكيل بعض قناعات لورانس في هذا الصدد .

كما ساعد التراث البروتستانتي المنشق عن الكنيسة الانكليزية على تشكيل مزيج من الجدية الأخلاقية والخروج على التقاليد في طبيعة لورانس .

كان قد أمضى ثلاث سنوات في ثانوية نوتنغهام من عام ١٨٩٨ إلى عام ١٩٠١ الذي قابل فيه جيسيّ تشامبرز وهي فتاة كانت تسكن في مزرعة قريبة من بيته ، وقد شجعته جيسي على الكتابة كما ساعدته في قصصه وقصائده المبكرة ، ولم يلبث أن خطبها عام ١٩٠٤ ، وفي عام ١٩٠٦ دخل الكلية الجامعية في نوتنغهام وفي عام ١٩٠٨ مُنِحَ منها شهادة التدريس وذهب ليقوم بالتدريس في «كرويدن» . وفي عام ١٩١٠ فسخ خطبته مع جيسي تشامبرز (رمز إليها بشخصية «مريام» في روايته «أبناء وعشاق») ومن ثُمّ خطب لُوِي باروز . وفي عام ١٩١٢ اشتدت وطأة المرض عليه اشتداداً أرغمه على التخلي عن مهنة التدريس فعاد إلى مقاطعة نوتنغهام ، وهناك قابل فريدا ويكلي ، وهي زوجة أستاذ في كلية نوتنغهام الجامعية . وفريدا هذه تنحدر من أسرة ألمانية أرستقراطية تدعى «فون ريختوفنْ» . وقد فرّت فريدا مع لورانس في العام نفسه إلى ألمانيا تاركةً زوجها وأطفالها من أجله . ولدى عودتها معاً إلى انكلترا عام ١٩١٤ تزوّجا ، وكان على لورانس أن يعيش على كتاباته .

ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى تعرض لورانس لسلسلة من الإحباطات ، فقد راح ينتقل من مكان إلى آخر في انكلترا وهو غير صالح للخدمة العسكرية بسبب السُّلّ ، كما كان مُراقَباً من قِبَل سلطات الأمن لِكَوْنِ زوجته فريدا ألمانية الأصل . ومُنِعَتْ روايته «قوس قزح» وتعذّر عليه أنْ يجد ناشراً واحداً يقبل نشر روايته الأخرى «نساء عاشقات» .

كانت الحرب قد جعلته يشعر أنّ البشرية سقطت في كراهية مشينة ، وأضعفت ثقته بالتقدم ، وخَيّبَتْهُ تشاؤماً صعباً . لقد كتب فيما بعد في روايته «الكنغر» (نشرت عام ١٩٢٣) يقول : «في عام ١٩١٥ انتهى العالم القديم» . كما كتب أيضاً في روايته القصيرة «الخنفساء المُنَقَّطة» (نشرت ١٩٢٣) : «كان عاما ١٩١٦ و١٩١٧ العامين اللذين ماتت فيهما الروح القديمة في انكلترا وإلى الأبد» .

وراح يأمل في الذهاب إلى أمريكا ليؤسس نوعاً جديداً من الجماعة ، وهو مشروع عرف باسم «رنانيم» وقد استحوذ اهتمامه طوال حياته ، ولكنّ أمريكا رفضت منحه جواز سفر . وبعد انتهاء الحرب سافر لورانس وزوجته فريدا خارج البلاد متنقلين من فلورانسا وصقلية إلى سيلان واستراليا ونيومكسيكو . كان لورانس قد بدأ رحلته بحثاً عن نمط للحياة يكون أكثر مُوافَقَةً لمتطلّبات الانسانية مما تقدمه الحضارة الغربية الصناعية ، وما كان سفره إلى استراليا إلّا لِيَدْرُسَ «البُشْمان» وهم قوم من المترحلين القناصة يعيشون في الغابات وبين أحضان الطبيعة ، وما كان نزوحه إلى المكسيك وإقامته فيها إلّا لِيَدْرُسَ الهنود الحمر ، وكل ذلك بحثاً عن الحضارات البدائية . وفي عام ١٩٢٥ اشتد عليه المرض فعاد إلى انكلترا ومنها إلى ألمانيا فايطاليا ففرنسا . كانت آخر رواياته «عشيق الليدي تشاترلي» قد حُظِرت في انكلترا عام ١٩٢٨ ، فنشرها في فلورنسا (إيطاليا) ، ولم تُنْشَر بعد ذلك في انكلترا دون حذف ما يُعْتَبَر مَساساً بالفضيلة حتى عام ١٩٦٠ . وفي عام ١٩٢٩ صودرت رسومات لورانس . وفي عام ١٩٣٠ اشتد الداء عليه فانتقل إلى مَصَحٍّ في «فِنْس» (فرنسا) في ١٩٣٠/٢/٦ ولم يلبث أن قضى نحبه في ١٩٣٠/٣/٢ .

أما على الصعيد الروائي فقد كان لورانس وَثّاب الطموح . لقد قال لفريدا مرة : «سأُغيّرُ العالم لألْفِ سنةٍ قادمة» . ولم يكن لورانس الوحيد الذي كان يريد خلق بداية جديدة في الرواية بين معاصريه . كان ثمة الفرنسي مارسيل بروست (١٨٧١ ـ ١٩٢٢) والانكليزي ذو الأصل الإيرلندي جيمس جويس (١٨٨٢ ـ ١٩٤١) ، وكان الاثنان أكثرَ تطرُّفاً في الابتكار الفني التقني من لورانس نفسه . ولم يَرُقْ جويس للورانس (وربما لم يَرُقْ لورانس لجويس) ومع ذلك يبقى الاثنان قمتين متقابلتين في الرواية الانكليزية . كما حاز الروائي الإنكليزي والمنحدر من أصل بولوني جوزيف كونراد (١٨٥٧ ـ ١٩٢٤) على إعجاب لورانس إنّما بتَحَفُّظٍ . في حين اتهم الألمانيُّ توماس مان (١٨٧٥ ـ ١٩٥٥) والفرنسيُّ غوستاف فلوبير (١٨٢١ ـ ١٨٨٠) بالانشغال الكامل بالجمال الشكلي . وقد أبدى لورانس شكوكه تجاه الفنية التي أدْخلها هنري جيمس (١٨٤٣ ـ ١٩١٦) على الرواية الانكليزية في أواخر القرن . وعلى الرغم من إعجاب لورانس الشديد برواية «آنّا كارنينا» (نشرت عام ١٨٧٦) التي كتبها الروائي الروسي الشهير ليو تولستوي (١٨٢٨ ـ ١٩١٠) ، أكثر من أية رواية أخرى ، إلاّ أنه لم يلبث أن تحدث عن تولستوي باستخفاف ، كما تحدث باستخفاف أيضاً عن فيودور دوستويفسكي (١٨٢١ ـ ١٨٨١) واعتبره مُرَوِّعاً . إلاّ أنه وبوضوح يَدِينُ لهؤلاء الكُتّاب الأوروبيين كما يَدينُ للروائيين الإنكليز من جين أوستن (١٧٧٥ ـ ١٨١٧) إلى هنري جيمس . وفيما يتعلق بالحبكة الروائية فقد أعلن لورانس أنه ضجر من الحبكات الروائية ، كحبكة تشارلز ديكنز (١٨١٢ ـ ١٨٧٠) واعتبر التقاليد والأعراف التي هيمنت على روايات القرن التاسع عشر «صبيانية» . لقد كان الكثيرون من روائيي القرن التاسع عشر يعتمدون على الحبكة المعقدة والأحداث المثيرة والعاطفة وذلك لإمتاع العامّةِ من الناس واستقطاب إعجابهم . أما فيما يتعلق بالعلاقات الجنسية فقد كانوا في غاية التحفظ . ولكنّ لورانس الذي ضجر من هذا النوع من الحبكات الروائية أراد أيضاً أن يتجنب أناقة هنري جيمس المُبْتَكَرَة .

ربما كان من الضروريّ أن يتنكّر لورانس للتراث لكي يوضح ما كان يريد أن

يكتبه . ومن سوء الحظ أنه وصل إلى نضوجه ككاتب أثناء الحرب العالمية الأولى عندما كان الرأيُ العام الإنكليزي في أضْيَق آفاقه . ولأنه عقد العزم على أن يطيعَ غرائزه هو ككاتبٍ لا أنْ ينتجَ محاكاةً للكُتّابِ الآخرين فإنّه من الصعب الإشارة إلى تأثيرات أدبية دقيقة عليه . وقد بقي بعيداً عن الحركات الأدبية التي سادت المجتمع الأوروبي عامة والانكليزي خاصة في تلك الفترة . لقد بقي لورانس نتاج نفسه هو .

---

* تجدر الإشارة إلى أن بعض أسطر هذه المقدّمة نقلتها بحرفيتها تقريباً من المصادر التالية :

1. THE ENGLISH NOVEL. WALTER ALLEN. PENGUIN BOOKS 1981.

2. THE ESSENTIALS OF ENGLISH LITERATURE. vol.2 - GREBANIER - BARRON'S EDUCATIONAL SERIES. Inc. 1948.

3. YORK NOTES ON «WOMEN IN LOVE». NIEL McEWAN. LONGMAN YORK PRESS. LIBRAIRIE DU LIBAN 1981.

كانت الفتاتان تُعْرَفان على نحو مألوف باسْمَيْ عائلتيهما بانفورد ومارش ، وكانتا قد ابتاعتا المزرعة معا وفي نيّتهما أن تديراها بأكملها بنفسيهما : أيْ كانتا ستربيان الدجاج وتجعلان من الدواجن مصدرا للرزق ، وتضيفان إليه عن طريق تربية بقرة وحيوان صغير أو اثنين . ولكن لسوء الحظ ، لم تَجْرِ الأمور على ما يرام .

كانت بانفورد فتاة نحيلة ، ضئيلة الجسم ، ضعيفة البنية ، وتضع نظارة . كانت على كل حال هي المستثمرة الرئيسية للمزرعة ، إذْ أنّ مارش كانت تملك القليل من النقود أو لم تكن تملك نقودا .

كان والد بانفورد ، وهو صاحب متجر في « إيسلنغتون » ، قد أعطى ابنته نقطة الانطلاق من أجل صحتها ، ولأنه كان يحبها ، ولأنه لم يكن ثمة ما يشير إلى أنها ستُقْدِمُ على الزواج .

أما مارش فقد كانت أقوى بُنْيَةً ، وكانت قد درست النجارة ومصنوعاتها في الصفوف الليلية في «إيسلنغتون» . وهي التي ستقوم مقام الرجل في المكان . وفوق ذلك ، كان يعيش معهما في البداية جد بانفورد العجوز والذي كان مزارعا . ولكن لسوء الحظ ، مات الرجل العجوز بعد أن جاء إلى مزرعة «بيلي فارم» بعام .

وعندئذ أصبحت الفتاتان تعيشان بمفردهما .

لم تكن أيٌّ منهما صغيرة السن : أيْ كانتا تقتربان من الثلاثين من العمر . ولكنهما بالتأكيد لم تكونا مُسِنَّتَيْن . لقد بدأتا مشروعهما بشجاعة فائقة ، وكان لديهما أعداد من الدجاج بأنواع مختلفة ، اللّجرن الأبيض والأسود والبلايماوث والوايندوت(*) ، بالإضافة إلى بعض البطّات وبقرتين صغيرتين في الحقل . وكانت إحدى البقرتين ، ولسوء الحظ ، تأبى بصورة مطلقة أن تبقى ضمن أسيجة مزرعة «بيلي فارم» . وأيّاً كان نوع السياج الذي كانت تقيمه مارش ، كانت هذه البقرة الصغيرة تفلح في الخروج ، لتنطلق جامحة في الغابة ، أو تنتهك حرمة المرعى المجاور ، وفي إثْرِها تطير بانفورد ومارش بطريقة فيها من السرعة أكثر مما فيها من النجاح . ولذا فقد باعتا هذه البقرة في يأس .

ثم ، وقبل أن تتوقع البقرة الأخرى عجْلَها الأول ، مات العجوز فباعتها الفتاتان في ذعر ، إذْ أنهما كانتا تخشيان الحادثة الوشيكة ، وحصرتا اهتماماتهما في الدجاج والبط .

وعلى الرغم من وجود قليل من الغنم ، كان عدمُ وجودِ ماشية بعد اليوم فَرَجاً للفتاتين .

فالحياة لم تُخْلَق ليقضيها المرء كادِحاً فحسب . لقد اتفقت الفتاتان على هذا ، فقد كان الدجاج مشكلة كافية تماما .

كانت مارش قد أقامت منضدتها المُعَدَّةَ للتجارة عند طرف الحظيرة المفتوحة . وهنا كانت تعمل وتصنع قفن الدجاج والأبواب والملاحق الأخرى . كان إيواءُ الدجاج يتم في المبنى الأكبر حجما والذي كان يستخدم كمخزن وحظيرة للبقر في الأيام الخوالي .

(*) اللجرن والبلايماوث والوايندوت : أنواع من الدجاج . المترجم .

كان للدجاجات منزل جميل وكان عليها أن تكون قانعة تماما . وفي الواقع كان يبدو عليها أنها على ما يرام تماما . ولكنّ الفتاتين كانتا مشمئزتين لميلها إلى الأمراض الغريبة ، ولطريقة حياتها القاسية ، ولرفضها ، رفضها العنيد ، وضْع البيض .

كانت مارش تقوم بمعظم الأعمال المنوطة بالهواء الطلق . وعندما كانت تزاول عملها في الخارج وفي الجوار وهي ترتدي لفافات الساق وبنطالها القصير ومعطفها المُزَرَّر وقلنسوتها المحلولة ، كانت تبدو تقريباً كشاب رشيق سائب التوازن ، إذْ أنّ كتفيها كانا مستقيمين ، وحركاتها عفوية وجريئة ، بل حتى مشوبة بقليل من اللامبالاة والتهكم .

ولكنّ وجهها لم يكن وجه رجل قط . كانت خصلات شعرها المتموج الداكن تتطاير حولها عندما تنحني ، وكانت عيناها كبيرتين وواسعتين وقاتمتين عندما ترفع نظرها ثانية ، غريبة ، مُجْفَلَةً ، خجلى ، وساخرة في الوقت نفسه . وكان فمها أيضاً مضغوطا وكأنما بفعل الألم والسخرية .

كان ثمة شيء غريب وغامض يحيط بها .

كان من عادتها أن تقف على أحد وركيها ، لتنظر إلى الدجاجات وهي تعدو بخطى سريعة خفيفة الوقع في الوحل الدقيق البغيض الكائن في الساحة المنحدرة ، وتنادي دجاجتها البيضاء المفضلة ، والتي كانت تأتي رَدّاً على ذِكْرِ اسمها . ولكنْ كان ثمة ومضة خاطفة هجائية في عيني مارش الكبيرتين القاتمتين وهي تنظر إلى جمهورها ذي أصابع القدم الثلاثية الذي كان يضرب الأرض بسرعة وتكرار تحت نظرتها المُحَدِّقَة ، والهجاء الطفيف الخطير نفسه في صوتها وهي تتحدث إلى « باتي » ، الدجاجة الموهوبة ، التي كانت تنقر جزمة مارش على سبيل إظهار المودة .

ولكن الدجاجات لم تَزْدهِرْ في مزرعة « بيلي فارم » على الرغم من كل مافعلته مارش من أجلها .

عندما كانت مارش تقدم للدجاجات الطعام الساخن في الصباح ، وفقا للقاعدة ، لاحظت أنه كان يجعلها متبلدة الحركة وناعسة لعدة ساعات . وكانت تتوقع أن تراها تتكيء على أعمدة الحظيرة أثناء عمليات هضمها البطيئة . وكانت تعرف تمام المعرفة أنّ على الدجاجات أنْ تنبش الأرض وتطوف بحثا عن الطعام إنْ كان عليها أنْ تتحسن . لذا قررت أنْ تقدم لها الطعام الساخن في الليل وتدعها تنم به . وهذا ما فعلته . ولكنّ الأمر لم يتغير .

وعلاوة على ذلك ، لم تكن ظروف الحرب مؤاتية لتربية الدواجن . فقد كان الطعام نادرا ورديئاً . وعندما أُقِرَّ مشروعُ قانون التوقيت الصيفي ، رفضت الدجاجات وبعناد أن تأوي كما هو مألوف في الصيف ، في حوالي التاسعة . كان الوقت متأخرا تماما في الواقع إذْ لم يكن ثمة هدوء إلى أن يتم إيواؤها وتنام . فكانت الآن تتجول بمرح دون أن تكلف نفسها عناء النظر إلى المخزن حتى العاشرة أو ما بعدها . ولم تكن بانفورد ومارش ـ كلتاهما ـ تؤمنان بالعيش من أجل العمل فحسب . كانتا ترغبان في القراءة أو التنزه على الدراجة في المساء ، أو لربما كانت مارش تود أن ترسم إوَزّات التّمّ المنحنيات على الخزف الصيني بخلفية خضراء ، أو أن تصنع أيضاً حاجبة رائعة للنار في المدفأة بعمليات موبيليا متقنة ، إذْ أنها كانت مخلوقة ذاتِ أهواء غريبة وميول لا تعرف إلى الرضى سبيلا . ولكن الدجاجات الحمقاء منعتها من تنفيذ كل ذلك .

وكان ثمة ما هو أشرّ الشرور .

فقد كانت مزرعة «بيلي فارم» مسكنا صغيرا بمخزن خشبي قديم ، وبمنزل أجزاؤه العلوية المثلثة خفيضة ويقع على مبعدة حقل واحد من طرف الغابة . ومنذ الحرب كان الثعلب شيطانا . كان يلتقف الدجاجات ويفرّبها نُصْبَ عَيْنَيْ بانفورد ومارش بالذات . وكان من عادة بانفورد أن تجفل وتحملق ملء عينيها عبر نظارتها الكبيرة عندما تنطلق صرخة حادة أخرى وزرفرفة أخرى عند عقبيها .

فات الأوان ! . . . دجاجة بيضاء أخرى ذهبت . وكان ذلك مثبطا للعزيمة .

وفَعَلاً ما في وسعهما لمعالجة هذا الأمر . وعندما أصبح من المسموح به إطلاق النار على الثعالب ، كانت كلتا الفتاتين تقفان على أهبة الاستعداد تحرسان ببندقيتيهما في أكثر الساعات ملاءمة .

لكن ذلك لم يُجْدِ نفعا . كان الثعلب أسرع منهما .
وهكذا مرت سنة أخرى ، وأخرى ، وهما تعيشان على خساراتهما كما قالت بانفورد .

وقامتا بتأجير منزلهما في المزرعة ذات صيف ، وانسحبتا لتقطنا عربة سكّةٍ حَديديّةٍ كانت قد وُضِعَتْ كنوع من أنواع المنازل الخارجية عند زاوية في الحقل . وقد أمتعهما ذلك وأفاد مواردهما المالية . ومع ذلك ، بدت الأمور قائمة .

ومع أنهما كانتا أفضل صديقتين ـ إذْ أنَّ بانفورد على الرغم من كونها عصبية المزاج ومرهفة الحساسية ، كانت ذات روح دافئة وشهمة ، أما مارش وعلى الرغم من كونها غريبة الأطوار وشاردة الذات ، كانت ذات سماحة غريبة في التفكير ـ إلاّ أنهما وفي العزلة الطويلة كانتا مَيَّالتَيْنِ إلى النزق قليلا كلٌّ مع الأخرى ، والضجر كلٌّ من الأخرى . وكان على مارش أن تقوم بأربعة أخماس الأعمال ، ومع أنها لم تكن لتكترث بذلك ، إلاّ أنَّ الأمر كان يبدو بدون فَرَج ، وكان ذلك يجعل عينيها تومضان أحيانا على نحو غريب . وعندئذ تصبح بانفورد قانطة لشعورها بإرهاق الأعصاب أكثر من أيِّ وقت مضى ، وتتحدث مارش معها بحدة . وبدا أنهما كانتا تتقهقران ، بطريقة أو بأخرى ، وتفقدان الأمل على مَرِّ الشهور . وبدا أنه ينبغي عليهما أن تعيشا بعيدا جدا عن ذاتيهما ، وحيدتين هنالك في الحقول القريبة من الغابة ، مع الريف الشاسع الذي يمتد معتما وأَجْوَفَ إلى هضاب «الوايت هورس» المستديرة في تلك الرقعة المنبسطة البعيدة من الأرض . لم يكن ثمة مايبقيهما في حالة جيدة ، وما من أمل .

كان الثعلب قد أثار غيظهما معا فعلاً . إذْ ما تكادان تُخْرِجَان الدواجن في صباحات الصيف الباكرة ، حتى يتحتم عليهما امتشاق بندقيتيهما ومواصلة الحراسة .

•

ولايكاد المساء يبدأ في الاشتداد أيضاً ، إلاّ ويكون عليها أن تخرجا مرة أخرى . وَلَشَدَّ ما كان الثعلب ماكرا .

كان يَنْسَلُّ على طول الأعشاب الداكنة ، وكان كالأفعى ، يصعب على المرء أن يراه . وبدا أنه كان يتغلب على الفتاتين بالحيلة والمراوغة عمدا . وكانت مارش قد لمحت مرة أو مرتين طرف ذيله الكثيف الأبيض ، أو طيفه الضارب الى الحمرة بين الأعشاب الداكنة وأطلقت عليه النار . ولكنه لم يقم وزنا لذلك .

وذات مساء كانت مارش تقف وقد أدارت ظهرها لغروب الشمس ، وبندقيتها تحت ذراعها ، وقد دفعت شعرها تحت قلنسوتها . كانت تراقب قليلاً ، وتفكر قليلا ، وكان هذا دأبها المستمر . كانت عيناها متوقدتَيْن وشَدِيدَتَيْ الانتباه ، ولكن عقلها الباطني لم يكن لينتبه إلى ما كانت تراه . كانت لاتفتأ تنحدر تدريجيا إلى حالة الشرود الغريبة هذه وقد زُمَّ فمُها نوعا ما .

وكان السؤال هو هل كانت هناك ، حاضرةً واعيةً في الواقع ، أم لا .

كانت الأشجار عند طرف الغابة تبدو خُضراً ، ضاربة إلى اللون البنيّ المعتم في الضوء الكامل ، إذْ كان الوقت أواخر شهر آب . وخلفها ، كانت جذوع وأغصان أشجار الصنوبر الكبيرة الجرداء الشبيهة بالنحاس تلمع في الهواء . وعلى مقربة منها كانت الأعشاب الخشنة ، بسيقانها الطويلة الضاربة الى اللون البني والمتألقة بأكملها ، ممتلئة بالضوء . كانت الدجاجات تتجول في الخارج ، والبطات مانزال تسبح في البركة تحت أشجار الصنوبر .

نظرت مارش إليها جميعا ، ورأتها جميعا ، ولم تَرَهَا . وسمعت بانفورد عن بُعْدٍ تتحدث مع الدواجن ، ولم تسمع . بماذا كانت تفكر؟؟ الله يعلم . كان إدراكها ، إذا جاز التعبير ، قد شُدَّ إلى الوراء .

وخفضت عينيها ، وفجأة رأت الثعلب . كان يرفع بصره إليها . كانت ذقنها مضغوطة للأسفل ، وكانت عيناه تنظران إلى الأعلى ، فقابلت عينيها ، وعرفها .

كانت مسحورة ، وعرفت أنه عرفها . لذا فقد نظر في عينيها ، وخلدلتها روحها . عرفها ولم يكن مرتاعا . وجاهدت ، وثابت إلى رشدها بارتباك ، ورأته يَنْسَلُّ هاربا ، بوثبات بطيئة فوق بعض الأغصان المتساقطة ، بوثبات صفيقة وبطيئة . ثم رمقها بنظرة عجل من فوق كتفه وفر مبتعدا بنعومة . وشاهدت ذيله الكثيف مشدودا إليه بنعومة كريشة ، وشاهدت كَفَلَيْه البيضاوين يتلألآن . وكان قد وَلَّى بنعومة ، ناعما كالريح . وضعت بندقيتها على كتفها ، ولكن حتى في تلك اللحظة زَمَّتْ فمها وقد أدركت أنه من العبث التظاهر بإطلاق النار . لذا بدأت تمشي وراءه ببطء ، في الاتجاه الذي كان قد مضى فيه ، ببطء وإصرار . كانت تتوقع أن تجده كانت قد عقدت العزم في قلبها على أن تجده . ولم تفكر ماذا ستفعل عندما تراه مرة أخرى . ولكنها كانت عاقدة العزم على أن تجده . لذا راحت تتجول بشرود عند حافة الغابة بعينين داكنتين واسعتين مفعمتين بالحيوية وتورد خافت في وجنتيها . لم تكن تفكر . كانت تمشي بشرود غريب هنا وهناك . وأخيراً أدركت أنَّ بانفورد كانت تناديها . وبذلت جهدا للانتباه ، واستدارت وردت بإطلاق نوع من النداء الصارخ . ثم مرة أخرى أخذت تخطو باتجاه المنزل . كانت الشمس الحمراء آخذة في الغروب ، وكانت الدواجن تنسحب إلى مأواها . راحت تراقبها : مخلوقات بيض ومخلوقات سود تتجمع باتجاه المخزن . راحت تراقبها وهي مسحورة ، دون أن تراها . ولكنَّ ذكاءَها الآلي أشار عليها أن تغلق الباب عندما حان الوقت لذلك .

ودخلت الى المنزل من أجل العشاء الذي كانت بانفورد قد أعدته على المائدة . وتحدثت بانفورد في غير كلفة وبسهولة . وبدت مارش تصغي بطريقتها الذكورية النائية . كانت تجيب بكلمة مقتضبة بين الفينة والفينة ، ولكنها كانت طوال الوقت وكأنها مشدودة بالسحر . وما إن انتهى العشاء حتى نهضت مرة أخرى لتخرج دون أن تفصح عن السبب .

أخذت بندقيتها مرة أخرى وذهبت لتفتش عن الثعلب ، إذْ كان قد رفع عينيه عليها ، وقد بدا أن نظرته العارفة قد دخلت دماغها . لم تفكر به كثيرا : كان قد

تَلْبَسُها . شاهدت عينه الداكنة الداهية تنظر إلى داخلها دون ارتباك ، وتعرفها . أحست به بشكل خفي يقهر روحها ، وعرفت الطريقة التي خفض بها ذقنه بينما كان يرفع نظره ، وعرفت خُطْمَةُ البقّ الذهبي والأبيض المائل إلى الرمادي . ومرة أخرى رأته يرمقها بنظرة عجلى من فوق كتفه ، بطريقة نصف مغرية ونصف مزدرية وماكرة . لذا ذهبت على طول طرف الغابة وعيناها الكبيرتان المذعورتان تومضان وبندقيتها تحت ذراعها . وفي هذه الأثناء هبط الليل ، وأشرق قمر كبير فوق أشجار الصنوبر . ومرة أخرى كانت بانفورد تنادي .

لذا دخلت المنزل . كانت صامتة ومنهمكة في التفكير . فحصت بندقيتها ونظفتها وهي تفكر بشرود قرب ضوء المصباح .

ثم خرجت مرة أخرى تحت القمر الكبير لترى فيما إذا كان كل شيء على ما يرام . وعندما شاهدت ذُرَى أشجار الصنوبر القاتمة إزاء السماء الحمراء بلون الدم ، خفق قلبها مرة أخرى للثعلب ، الثعلب . أرادت أن تتعقبه ببندقيتها .

ومرت بضعة أيام قبل أن تذكر القضية لبانفورد . ثم فجأة قالت ذات مساء :

ـ كان الثعلب عند قدمي تماما مساء السبت .

قالت بانفورد وقد اتسعت عيناها خلف نظارتها :

ـ أين ؟؟

ـ عندما وقفتُ فوق البركة تماما .

فصاحت بانفورد :

ـ وهل أطلقتِ النار ؟؟

ـ كلا . لم أفعل .

ـ ولِمَ لَمْ تطلقي النار .

ـ عجبا !.. لقد كنت على درجة كبيرة من الذهول على ما أعتقد .

كانت طريقة الحديث المقتضبة البطيئة والقديمة نفسها التي كانت تَتَّبِعُها مارش دائما . وحدقت بانفورد بصديقتها لبضع لحظات ، وصاحت :

- هل رأيته؟؟

- أجل . كان يرفع نظره إليّ ، باردا كأيّ شيء . .

فصاحت بانفورد :

- أقول لك ! . . إنها الوقاحة ! . . إنها لاتخشانا ياتيللي .

قالت مارش :

- اوه . كلا .

فقالت بانفورد :

- من المؤسف أنك لم توجهي له طلقة .

- أليس في ذلك ما يدعو للأسف ! . . انني أفتش عنه منذ ذلك الوقت . ولكنني لا أعتقد أنه سيدنو مرة أخرى الى هذا الحد .

قالت بانفورد :

- لا أعتقد أنه سيفعل ذلك .

وبدأت تنسى الموضوع إلاّ أنها كانت أكثر سخطا من أيّ وقت مضى لوقاحة المتسول . ولم تكن مارش أيضاً تعي أنها فكرت بالثعلب . ولكنْ ما إنْ تسقط في حالة نصف التأمل ، نصف شاردة ونصف مدركة بذكاء لما مَرَّ تحت بصرها ، إلا ويكون الثعلب هو الذي هيمن نوعا ما على غيبوبتها ، وتلبّس النصف الخاوي من تأملاتها .

وهذا ما كان الأمر عليه لأسابيع وشهور . وسواء أكانت تتسلق الأشجار لجنْي التفاح ، أو تهز الأغصان لإسقاط آخر ثمار الخوخ الأرجواني ، وسواء أكانت تحفر قناة تصريف من بركة البط ، أم تنظف المخزن ، وعندما تكون قد انتهت ، أو عندما كانت تعدل قامتها وتدفع خصلات شعرها بعيدا عن جبهتها مرة أخرى وتزمُّ فمها ثانية بطريقة ملتوية غريبة أكبر سناً من أعوامها بكثير ، كان من المؤكد أن سحر الثعلب القديم سَيَعِنُّ على بالها كما حدث عندما كان ينظر اليها . كان يبدو وكأنها تستطيع أن تشم رائحته في هذه الأوقات . وكان هذا السحر يعاودها دائما في لحظات

غير متوقعة ، في الوقت الذي تذهب فيه للنوم في الليل ، أو في الوقت الذي تصب فيه الماء في إبريق الشاي لإعداد الشاي . كان الثعلب . وكان يصيبها كالسحر .

وهكذا مرت الشهور . وكانت لاتفتأ تفتش عنه بلا وعي عندما كانت تمضي باتجاه الغابة . كان قد أضحى أثراً ثابتاً في روحها ، حالة توطدت بشكل دائم وإن لم تكن متصلة ، ولكنها كانت تعاود الذهن . ولم تكن تعرف بماذا أحسّت أو فكّرت : كانت الحالة فقط تنتابها كما حدث عندما نظر إليها .

ومرت الشهور ، وجاءت المساءاتُ الحالكة وتشرين الثاني المظلم الثقيل ، عندما كانت مارش تخرج بجزمتها العالية ، وبغوص كاحلها عميقا في الوحل ، وعندما كان الليل يبدأ في الهبوط في الساعة الرابعة ، والنهار لايبزغ أبدا كما ينبغي . وكانت الفتاتان كلتاهما ترهبان هذه الأوقات . كانتا ترهبان الظلمة المستمرة تقريبا والتي كانت تغلّفهما في مزرعتهما الصغيرة المهجورة قرب الغابة . كانت بانفورد تخاف جسديا . كانت تخشى المتجولين ، تخشى أن يأتي أحد ما وهو يجوس المكان خلسة . ولم تكن مارش خائفة جدا بقدر ماكانت متضايقة ومُشَتَّتة . كانت تشعر بالانزعاج والكآبة في بنية جسمها كله . كانت الفتاتان عادة تتناولان الشاي في غرفة الجلوس . كانت مارش تشعل نارا عند الغسق ، وتضع عليها الأخشاب التي احتطبتها وقامت بنشرها أثناء النهار . ثم يأتي المساء الطويل قُدُماً ، مظلما ومُخْضَلاً بالماء وأسود في الخارج ، وموحشا بل وقابضا للصدر بالأحرى في الداخل ، كئيبا نوعا ما . كانت مارش قانعة بعدم الكلام ، ولكن بانفورد لم يكن في مقدورها أن تبقى ساكنة . وكان مجرد الإصْغَاءِ إلى الريح بين أشجار الصنوبر في الخارج ، أو صوت قطرات الماء المتساقطة ، فوق طاقتها .

وذات مساء كانت الفتاتان قد غسلتا فناجين الشاي في المطبخ ، وقد انتعلت مارش حذاءها المنزلي وأخذت لَفَّةً من شغل «الكروشيه»(*) التي كانت تشتغل بها ببطء

(*) الكروشيه : نسيج يُحْبك بإبرة معقوفة . المترجم .

من وقت لآخر . وهكذا غاصت في الصمت . وحدقت بانفورد إلى النار الحمراء التي كانت في حاجة إلى الانتباه المستمر لكونها من الحطب . كانت تخشى أن تبدأ القراءة في وقت مبكر جدا لأن عينيها لن تتحملا أيَّ إجهاد . لذا فقد جلست وهي تحدق إلى النار وتصغي إلى الأصوات البعيدة ، صوت خوار الماشية ، وصوت الريح الرطبة الثقيلة الباهتة ، وصوت جلبة قطار المساء على السكة الحديدية الصغيرة التي لم تكن بعيدة . كانت مفتونة تقريباً بتوهج النار الأحمر .

وفجأة أُجْفِلَت الفتاتان معا ورفعتا رأسيهما . فقد سمعتا وقع قدم ، وقع قدم بوضوح .

وانكفأت بانفورد في خوف . وانتصبت مارش وهي تصغي . ثم وبسرعة اقتربت من الباب المفضي إلى المطبخ . وفي الوقت نفسه سمعتا وقع الأقدام وهي تدنو من الباب الخلفي . وانتظرتا لمدة ثانية . وفتح الباب الخلفي برقة . وأطلقت بانفورد صرخة مدوية . وقال صوت رجل بنعومة :

ـ مرحبا .

فَارْتَدَّتْ مارش إلى الوراء وأخذت بندقية من الزاوية . وصاحت في صوت حاد :

ـ ماذا تريد؟؟؟

ومرة أخرى قال صوت الرجل الناعم المتردد بنعومة :

ـ مرحبا . ما الأمر؟؟؟

فصاحت مارش :

ـ سأطلق النار . ماذا تريد؟؟

وجاء الصوت الناعم المتسائل والمرتاع إلى حد ما :

ـ لماذا؟ ما الأمر ؟ ما الأمر؟؟

وتقدم جنديٌّ شاب بعدته الثقيلة على ظهره في الضوء الباهت . وقال :

ـ عجبا! . . من يقطن هنا إذن؟؟

فقالت مارش :

ـ نحن نقطن هنا . ماذا تريد؟؟

ونَدَتْ إشارة تساؤل رخيمة وطويلة عن الجندي الشاب :

ـ أوه . ألا يقطن هنا ويليام غرينفل إذن؟؟

ـ كلا . أنت تعرف أنه لا يقطن هنا .

ـ هل أعرف؟؟ هل أعرف؟؟ كلا لا أعرف . هل تعلمين . كان يقطن هنا فعلا ، لأنه كان جدي ، وكنت أنا نفسي أقطن هنا لخمس سنين خلت . ماذا حدث له إذن؟؟

وتقدم الآن الرجل الشاب ـ أو الفتى ، إذْ أنه لم يكن يتجاوز العشرين ـ ووقف في المدخل الداخلي . وحملقت فيه مارش مسحورة وقد وقعت للتوّ تحت تأثير صوته الغريب الناعم المُلَطَّف . كان ذا وجه مستدير بعض الشيء ، متورد اللون ، وشعر مائل إلى الشُقرة وطويل إلى حد ما وقد تسطح عند جبهته بالعرق . وكانت عيناه زرقاوين ولامعتين جدا وحادتين . وعلى وجنتيه ، على الجلد المتورد الناضر كانت ثمة شعرات دقيقة شُقْرٌ كزَغَبٍ ولكنها أكثر حدة من الزغب . وقد حباهُ ذلك نظرةً متلألئة على نحو طفيف . ولأن حقيبته الظهرية الثقيلة كانت على كتفيه ، فقد كان ينحني وقد مَدَّ رأسه إلى الأمام . وكانت قبعته سائبة في إحدى يديه . وراح يحملق بصفاء شديد وعلى نحو حاد جدا من فتاة الى أخرى ، وخصوصا في مارش التي وقفت شاحبة ، بعينين منسعتين كبيرتين ، في معطفها المُزَنَّر ولفافات الساق ، وقد عُقِد شَعْرُها عقدة كبيرة متموجة إلى الخلف . وكانت البندقية ما تزال في يدها . ووراءها كانت بانفورد منكمشة برأس نصف موارب وقد التصقت بذراع الأريكة .

ـ كنت أعتقد أنّ جدّي ما يزال يعيش هنا؟ إنني أتساءل فيما إذا كان قد مات؟

فقالت بانفورد التي بدأت تسترد حواسها وقد رأت شيئا صبيانيا في الوجه المستدير بشعره المتعرق والطويل نوعا ما :

ـ نحن هنا منذ ثلاث سنوات .

ـ ثلاث سنوات!.. ألا تقولين ذلك!.. ولاتعرفان منْ كان هنا قبلكما؟؟

ـ أعرف أنه كان رجلا عجوزا عاش لوحده .

ـ آه . أجل . إنه هو . وماذا حدث له بعدئذ؟؟

ـ لقد مات . أعرف أنه مات .
ـ آه . لقد مات اذن! . .

وحدق الفتى إليها دون أن يغيّر لونه أو تعبيره . ولو كان لديه أيّ تعبير ، علاوة على نظرة تعجب محيرة طفيفة ، لكان تعبيرا عن فضول حاد يتعلق بالفتاتين ، فضول حاد مجرد ، فضول ذلك الرأس الشاب المستدير .

ولكن بالنسبة لمارش كان هو الثعلب . سواء كان ذلك في امتداد رأسه الى الأمام أو تلألؤ الشعيرات الدقيقة البيض على عظم وجنتيه المتوردتين ، أو عينيه اللامعتين الحادتين ، فذلك مالايمكن أن يقال أبداً : ولكن الفتى كان بالنسبة لها الثعلب ، ولم يكن في استطاعتها أن تراه غير ذلك .

وسألته بانفورد وقد استردت حدتها الطبيعية :
ـ وكيف حدث أنك لم تعرف فيما إذا كان جدك حيا أو ميتا؟؟
فأجاب الفتى الذي كان يتنفس بنعومة :
ـ آ . ذلك هو السؤال . كما ترين لقد التحقت بالجندية في كندا ولم أسمع عن شيء منذ ثلاث أو أربع سنوات . لقد فررتُ إلى كندا .
ـ وهل أتيتَ الآن من فرنسا؟؟
ـ حسنا . من سالونيكا في الواقع .
وكان ثمة وقفة قصيرة إذْ لم يكن أحد يعرف تماما ماذا يقول .
قالت بانفورد على نحو وَاهٍ إلى حد ما :
ـ وهكذا لامكان لديك لتذهب إليه الآن؟؟
ـ اوه . أعرف بعض الناس في القرية . على أية حال أستطيع أن أذهب إلى نُزُل «سوان» .
ـ أتيت بالقطار على ما أعتقد . هل تود أن تجلس قليلا؟؟
ـ حسنا . إنني لا أجد باسا في ذلك .

وأصدر أنيناً صغيرا غريبا وقد أدار حقيبته الظهرية جانبا . نظرت بانفورد إلى مارش وقالت :

- أنزلي البندقية . سَنُعِدُّ فنجانا من الشاي .

قال الفتى :

- أجل . لقد شاهدنا ما يكفي من البنادق .

وجلس على الأريكة متعبا إلى حد ما وقد مال إلى الأمام .

واستعادت مارش حضور ذهنها ، ودخلت المطبخ . وهناك سمعت الصوت الشاب الناعم يستغرق في التفكير :

- حسنا . كلما فكرتُ أنني قد عُدْتُ ورأيت الأمور هكذا!! . .

ولم يكن يبدو حزينا ، البتة . فقط كان يبدو مذهولا باهتمام الى حد ما . وتابع وهو يجول بطرفه في الغرفة :

- ويا للفرق في المكان ، هه؟؟

قالت بانفورد :

- وهل ترى فارقا حقا؟؟

- أجل . أليس كذلك؟؟

كانت عيناه صافيتين وبراقتين على نحو غير طبيعي على الرغم من أن ذلك كان مَرَدُّهُ بريقُ الصّحة الوفيرة .

وكانت مارش منهمكة في المطبخ وهي تهيء وجبة أخرى . كانت الساعة السابعة تقريبا وطوال الوقت وفيما كانت نشطة كانت تصغي الى الفتى في حجرة الجلوس . ولم تكن تصغي كثيرا الى ما كان يقوله بقدر ما كانت تشعر بتدفق صوته الناعم . زَمَّتْ فمها بانضغاط أكثر فأكثر ، مُغْضِّنَةً إيّاه وكأنما قد خيطَ في محاولة منها للإبقاء على إرادتها أعلى ما يمكن . مع ذلك فقد اتسعت عيناها الكبيرتان وتوهّجتا رغما عنها ، لقد فقدت نفسها . وبسرعة ولا مبالاة أعدت الوجبة وقد قطعت قطعا كبيرة من الخبز وسمن المارغرين إذْ لم يكن ثمة زبدة . وأرهقت ذهنها في التفكير في شيء

آخر تضعه على الصينية . كان لديها خبز وسمن ومربى فقط إذ أنَّ خزانة حفظ الأطعمة كانت خاوية . وعندما عجزت عن استحضار أيِّ شيء دخلت الى غرفة الجلوس بصينيتها . لم تكن تريد أن يلحظها أحد . وقبل كل شيء ، لم تكن تريده هو أن ينظر اليها . ولكنه ، عندما دخلت وانهمكت في إعداد المائدة وراءه تماما ، سحب نفسه نحو الأعلى من امتداده واستدار ونظر من فوق كتفه ، فانقلبت شاحبة وسقيمة .

وراقبها الفتى فيما كانت تنحني فوق المائدة ونظر إلى ساقيها النحيلتين الممشوقتين والى المعطف المُزَنَّر وقد انسحب حول فخذيها ، وإلى عقدة الشعر الداكن ، ومرة أخرى أثارت فضوله الحيوي والمتيقظ على نطاق واسع .

وكانت ظُلَّةٌ خضراء غامقة اللون قد وضعت على المصباح ، لذا كان الضوء ينتشر نحو الأسفل بينما كان الجزء العلوي من الغرفة معتما . وتحرك وجهه براقا تحت الضوء ، ولكن مارش بدت ظليلة عن بعد .

استدارت ، ولكنها أبقت عينيها جانبياً وهي تسبل وترفع أهدابها القاتمة . وحل فمها عقدته عندما قالت لبانفورد :

ـ هَلاَّ سَكَبْتِ؟؟

ثم دخلت المطبخ ثانية . قالت بانفورد للفتى :

ـ تناول الشاي حيث أنت إنْ شئتَ ، إلاَّ إذا كنتَ تفضل المجيء الى المائدة .

قال :

ـ حسنا . إنني لطيف ومريح هنا ، أليس كذلك؟؟ سأتناوله هنا إنْ كنتِ لاتمانعين .

قالت :

ـ لاشيء هنالك سوى الخبز والمربى .

ووضعت صحنه على كرسيّ خفيض قربه . وكانت سعيدة جدا الآن وهي تقوم على خدمته . إذ كانت تُحبّ العِشْرة . ولم تعد الآن خائفة منه أكثر من خوفها من أخيها الصغير . كان غلاما كهذا . نادت قائلة :

ـ نيللي . لقد سكبتُ لك شايا .

وظهرت مارش عند المدخل ، وأخذت فنجانها وجلست في إحدى الزوايا وقد ابتعدت عن الضوء ما أمكنها . وكانت شديدة الحساسية في ركبتيها . ولكونها لاتملك ثنانير لتغطيتهما ، ولكونها مرغمة على الجلوس وهما مكشوفتان بوقاحة ، فقد عانت . وانكمشت أكثر فأكثر وهي تحاول ألاّ يراها أحد .

وراح الفتى ، وهو يمتد خفيضا على الكنبة ، يرمقها بنظرات طويلة ثابتة وثاقبة حتى أصبحت تقريبا على استعداد للتلاشي .

مع ذلك فقد أمسكت فنجانها باتزان ، وشربت شايها ، وزمّتْ فمها ، وأبقت رأسها مواربا . وكانت رغبتها في أن تكون غير مرئية قوية جدا إلى درجة أربكت الفتى تماما . شعر أنه لايستطيع أن يراها بوضوح . وبدت وكأنها ظلٌّ ضِمْنَ ظِلّ . وكانت عيناه دائما ترجعان إليها باحثتين باستمرار ، باهتمام ثابت غير مقصود .

وفي هذه الأثناء كان يتحدث برقة ونعومة مع بانفورد التي لم تكن تحبّ شيئا حبا كثيرا حُبّها للقيل والقال ، والتي كانت مفعمة باهتمام متغطرس مثل طائر . لقد أكل كميات كبيرة وبسرعة ونهم بحيث كان يتحتم على مارش أن تقطع المزيد من الخبز وسمن المارغرين ، وهي مَشَقَّةٌ اعتذرت عنها بانفورد .

قالت مارش وقد تحدثت فجأة :

ـ اوه ، حسنا . إذا لم يكن ثمة زبدة لوضعها على الخبز فلا جدوى من محاولة صنع قطع لذيذة .

وراقبها الفتى مرة أخرى وضحك ضحكة مفاجئة سريعة وقد أظهر أسنانه وجعّد أنفه . وأجاب بصوته القريب الناعم :

ـ لا جدوى ، أليس كذلك ؟؟

واتضح أنه كان كورنيُّ الولادة والنشأة . وعندما بلغ الثانية عشرة من عمره أتى الى مزرعة «بيلي فارم» مع جده ، والذي لم يكن على وفاق معه بشكل جيد قط . لذا فقد فرَّ إلى كندا ، وعمل في منطقة بعيدة في الغرب .

والآن ها هو هنا ، وكانت تلك نهاية القصة .

كان فضوليا جدا فيما يتعلق بالفتاتين لاكتشاف ما كانتا تفعلانه تماما . كانت أسئلته أسئلة فتى من فتيان المزارع ، حادة ، عملية ، وساخرة قليلا . ولشد ما أمتعه موقفهما من خساراتهما : إذْ أنهم كانوا يتنذَّرون بشأن العجول والدجاج .

وقاطعت مارش الحديث قائلة :

ـ اوه . حسنا . اننا لانؤمن بالعيش من أجل العمل فحسب .

أجاب :

ـ حقا؟؟

ومرة أخرى ارتسمت على وجهه الضحكة الشابة السريعة . وأبقى عينيه ثابتتين على المرأة المنعزلة في الركن .

قال :

ـ ولكن ماذا ستفعلان بعد أن تكونا قد استهلكتما كل رأس مالكما؟؟

أجابت مارش باقتضاب :

ـ اوه . لا أعرف . نؤجر نفسينا في الخارج كعاملات في الأرض على ما أعتقد .

فقال الفتى :

ـ أجل ، ولكن لن يكون ثمة أيُّ طلب على نساء عاملات في الأرض الان وقد انتهت الحرب .

قالت مارش بلا مبالاة كئيبة ، نصف ساخرة ونصف حزينة :

ـ اوه . سنرى . سننتظر فترة أطول بقليل الآن .

قال الفتى برقة :

ـ ثمة حاجة لرجل في المكان .

فانفجرت بانفورد ضاحكة ، وقاطعته قائلة :

ـ انتبه لما تقول . اننا نعتبر نفسينا كفؤا تماما .

وتناهى صوت مارش الكئيب البطيء :

ـ اوه . إنها ليست قضية كفاءة على ما أخشى . إنْ كُنْتَ ستقوم بالزراعة فيجب أن تكون فيها من الصباح وحتى الليل ، وقد تصبح أنت نفسك دابّةً بالإضافة الى ذلك .

قال الفتى :

ـ أجل . أصَبْتِ . أنتما غير راغبتين في إقحام نفسيكما فيها .

قالت مارش :

ـ لسنا راغبتين ونحن نعرف ذلك .

قالت بانفورد :

ـ نريد بعضا من وقتنا لنفسينا .

رمى الفتى نفسه إلى الوراء على الأريكة ، وقد شد الضحك وجهه ، وضحك بصمت ولكنْ بكل كيانه . لقد دَغْدَغَتْهُ سخرية الفتاتين الهادئة إلى حد هائل . قال :

ـ أجل . ولكن لماذا بدأتما إذن؟؟

قالت مارش :

ـ اوه . كانت لدينا وقتها فكرة أفضل عن طبيعة الدجاج من الفكرة التي كَوَّنّاهَا الآن .

قالت بانفورد :

ـ عن الطبيعة كلها على ما أخشى . لاتحدثيني عن الطبيعة .

ومرة أخرى انْشَدَّ وجه الفتى بضحكة مبتهجة وقال :

ـ ليست لديكما فكرة عالية جدا عن الدجاج والقطيع ، أليس كذلك؟؟

قالت مارش :

ـ اوه ، كلا ، بل فكرة ضئيلة تماما .

فقهقه الفتى . قالت بانفورد :

ـ لا الدجاج ولا العجول ولا الماعز ولا الطقس .

فانفجر الفتى مبتهجا بنباح حاد من الضحك . وبدأت الفتاتان تضحكان أيضاً وقد أشاحت مارش بوجهها جانبا وزمت فمها في متعة .

قالت بانفورد :

ـ اوه . حسنا . إننا لانكترث . أليس كذلك يا نيللي ؟؟

قالت مارش :

ـ كلا . إننا لانكترث .

كان الفتى مسرورا جدا . كان قد أكل وشرب ما ملأ شبعه .

وبدأت بانفورد تسأله . كان اسمه «هنري غرينفلنو» ولم يكن يُدْعَى هاري بل دائما هنري . وتابع الإجابة وقوراً وساحرا ببساطة دمثة . ورمته مارش ، التي لم تكن عنصرا في المحادثة ، بنظرات طويلة وبطيئة من موضعها المنعزل فيما كان يجلس هناك على الأريكة وقد حضنت يداه ركْبتيه والتفت وجهه الذي كان رشيقا وَوَضَّاءً تحت المصباح إلى بانفورد . وأصبحت في النهاية مسالمة تقريبا . لقد تمت مطابقته مع الثعلب . وكان هنا بحضور كامل . لم تعد في حاجة إلى مطاردته بعد الآن . وهناك في ظل ركنها أسلمت نفسها لهدوء دافىء ومُسْتَرْخٍ ، كالنوم تقريبا ، وقد قبلت السحر الذي كان عليها . ولكنها كانت تتمنى أن تبقى مَخْفِيَّة . كانت برمتها في سلام فحسب ، بيتها نسيها وهو يتحدث الى بانفورد . وبالاختفاء في ظل الركن لا تحتاج بعد الآن أن تكون منقسمة في نفسها وهي تحاول الإبقاء على مستويين من الوعي . لقد استطاعت أخيرا أن تنحدر تدريجيا إلى رائحة الثعلب . إذْ أنَّ الفتى وهو جالس أمام النار في بزَّتِهِ بَثَّ رائحة خافتةً ولكنها متميزة في الغرفة ، ومن المتعذر تَحْدِ يْدُهَا ، ولكنها أشبه بكائن بَرّي . ولم تعد مارش تحاول أن تحفظ نفسها منها . كانت ساكنة وناعمة في ركنها ككائن هامد في كهفه .

وأخيراً تضاءل الحديث . وأرخى الفتى احتضانه لركبتيه ، واستجمع نفسه كلها قليلا ، ونظر حوله . ومرة أخرى أصبح مدركا للمرأة الصامتة نصف المَخْفِيَّة في الركن .

قال بدون قصد :

ـ حسنا . اعتقد أنه يحسن بي أن أذهب وإلاّ سيكونون قد أوَوْا إلى الفراش في نُزُل «سوان» .

قالت بانفورد :

ـ أخشى أن يكونوا الآن في الفراش على أية حال . لقد أصيبوا جميعا بهذه الانفلونزا .

فهتف قائلا :

ـ هل حدث ذلك!..

وراح يتفكر . ثم تابع قوله :

ـ حسنا . سأجد مأوى في مكان ما .

فشرعت بانفورد في القول :

ـ أود أن أقول أنه يمكنك أن تبقى هنا ، فقط ـ

فاستدار وراقبها وهو يدفع رأسه الى الأمام وسألها :

ـ ماذا؟

قالت :

ـ اوه . انها اللياقة على ما أعتقد .

كانت مرتبكة نوعا ما . فقال وقد ذهل بلطف :

ـ لن يكون ذلك غير لائق . أليس كذلك؟؟

قالت بانفورد :

ـ كلا ما دمنا نحن المعنيتين .

فقال ببساطة رزينة :

ـ ولن يكون طالما أنا المعني . ومع ذلك إنه بيتي أنا بطريقة ما .

فابتسمت بانفورد لهذا القول وقالت :

ـ هذا ماسينبغي على القرية أن تقوله .

وكان ثمة صمت مربك للحظة . وسألت بانفورد قائلة :

ـ ماذا تقولين يانيللي؟؟

قالت مارش بأسلوبها المتميز :

ـ إنني لا أكترث . القرية لاتهمني على أية حال .

فقال الفتى بسرعة ونعومة :

ـ كلا . لماذا يجب ذلك؟ أقصد ماذا يجب أن يقولوا؟؟

وتناهى صوت مارش الكئيب المقتضب :

ـ اوه . حسنا . سيجدون بسهولة شيئا ما يقولونه . ولكن لايهم ما يقولون نستطيع أن نُعْنَى بنفسينا .

فقال الفتى :

ـ طبعا تستطيعان .

قالت بانفورد :

ـ حسنا إذن . توقّفا لو سمحتما . الغرفة الاحتياطية جاهزة تماما .

فَشَعَّ وجهه بالسرور . وقال بتلك الدماثة الرقيقة التي جعلته مميزا :

ـ إذا كنتما متأكدتين تماما أن ذلك لن يزعجكما كثيرا .

فقالت الاثنتان معا :

ـ اوه . إنها ليست مشكلة .

فنظر من واحدة إلى الأخرى وهو يبتسم بسرور ، وقال بامتنان :

ـ إنه أمر لطيف إلى أبعد حد أن لايكون على المرء أن يغادر المنزل مرة أخرى ، أليس كذلك؟؟

قالت بانفورد :

ـ أعتقد أن الأمر كذلك .

واختفت مارش لتهيىء الغرفة . وكانت بانفورد مسرورة وكثيرة الاهتمام بالأمر وكأن أخاها الصغير بالذات قد عاد الى البيت من فرنسا . لقد منحها القيام على خدمته وإعداد الحمّام له وكلّ شيء النوع نفسه من المسرّة . لقد وجد دفؤها ورِقّةُ قلبها الطبيعيان مُتنَفّساً الآن . وتنعم الفتى باهتمامها الأخوي . ولكن أربكه وعلى نحو طفيف أن يعرف أنَّ مارش كانت تعمل بصمت من اجله أيضاً .

كانت صامتة ومنسية على نحو غريب جدا . وبدا له أنه لم يرها حقا . وأحس أنه لن يعرفها لو قابلها في الطريق .

وفي تلك الليلة حلمت مارش بحيوية . حلمت أنها سمعت في الخارج غناءً لم تستطع أن تفهمه : غناء طاف حول المنزل في الحقول وفي الظلام . لقد أثار مشاعرها إلى درجة أنها أحست انه ينبغي عليها ان تبكي . وخرجت وفجأة عرفت أن الثعلب هو الذي كان يغني . كان أصفر اللون جداً ولامعاً كالذُرَة . واقتربت منه أكثر ، ولكنه فَرَّ وتوقف عن الغناء . كان يبدو قريباً ، وارادت أن تلمسه . مدت يدها ، ولكنه عض رسغها فجأة ، وفي اللحظة نفسها وبينما كانت ترجع إلى الخلف ، حرك الثعلب ذيله برشاقة عبر وجهها وهو يستدير ليقفز مبتعداً ، وبدا أن ذيله كان على نار ، إذْ انه لفحها واحرق فمها بألم عظيم . وافاقت بهذا الألم ، واستلقت وهي ترتجف وكأنها لُفِحَتْ فعلاً .

وفي الصباح ، على أية حال ، تذكرته كذكرى نائية فقط . نهضت وانهمكت في إعداد المنزل والعناية بالدجاج . وطارت بانفورد إلى القرية على دراجتها لتحاول أن تشتري طعاماً . كانت روحاً مضيافة . ولكن واحسرتاه !.. ففي عام ١٩١٨ لم يكن ثمة طعام كثير يمكن شراؤه . نزل الفتى إلى الطابق السفلي بقميصه الداخلي . كان فتياً وناضراً ، لكنه كان يمشي وقد امتد رأسه إلى الأمام بحيث كان كتفاه يبدوان مرفوعين ومستديرين ، وكأنما كان لديه تقوس طفيف في العمود الفقري . لابد أن ذلك كان فقط الأسلوب الذي يحمل فيه نفسه ، إذْ أنه كان شاباً وقوياً . غسل نفسه وخرج ، بينما كانت المرأتان تعدان الفطور .

شاهد كل شيء ، وامتحن كل شيء . كان فضوله سريعاً لا يعرف الشبع . وقارن حالة الأشياء بالحالة التي كان يتذكرها من قبل ، وحسب في ذهنه أثر التغييرات . راقب الدجاج والبط ليرى وضعها ، ولاحظ طيران حمائم الغاب فوق رأسه : كانت كثيرة العدد، وشاهد التفاحات القليلة العالية والتي لم يكن في وسع مارش أن تصل إليها ، ولاحظ أنها كانتا قد استعارتا مضخة سحب ، ربما لتفريغ حوض الماء الكبير الذي كان على الجانب الشمالي من المنزل .

قال للفتاتين عندما جلس إلى مائدة الإفطار :

ـ إنه مكان قديم خَرِبٌ ومضحك .

كانت عيناه حكيمتين وطفوليتين بالتفكير في الأشياء . لم يقل الكثير ، ولكنه أكل كمية كبيرة . وظلت مارش تشيح بوجهها جانباً . هي أيضاً لم تستطع أن تعيه في الصباح الباكر على الرغم من أن شيئاً ما من تلألؤ بذلته الكاكي ذكّرها بلمعان الثعلب في حلمها .

وأثناء النهار شرعت الفتاتان في عملهما . في الصباح اعتنى هو بالبنادق ، وقوّص أرنباً وبطة برية كانت تطير عالياً باتجاه الغابة ، وكان ذلك إضافة كبيرة لخزانة الأطعمة الفارغة . وشعرت الفتاتان أنه قد كسب قُوتَهُ الآن . على أية حال لم يقل شيئاً عن المغادرة . بعد الظهر ذهب إلى القرية وعاد في وقت تقديم الشاي . كان يرتسم على وجهه المظهر اليقظ الممتد للأمام نفسه . علق قبعته على مشجب بإيماءة متأرجحة قليلاً . كان يفكر بشيء ما . قال للفتاتين عندما جلس إلى المائدة :

ـ حسناً . ماذا سأفعل ؟؟

قالت بانفورد :

ـ ماذا تقصد بقولك ماذا ستفعل ؟؟

قال :

ـ أين سأجد مكاناً في القرية أقيم فيه ؟؟

قالت بانفورد :

ـ لا أعرف . أين تفكر في الإقامة ؟؟

فتردد قائلاً :

ـ حسناً . في نُزُل «سوان» أصيبوا بالانفلونزا ، وفي نزل «بلاو آند هارو» يؤون الجنود الذي يجمعون القش للجيش : بالإضافة إلى ذلك فإنّ في المنازل الخاصة عشر رجال وعريفا خُصِّصَ لهم جميعاً منازلُ للإيواء في القرية كما أخبروني . لست متأكداً أين ساستطيع الحصول على سرير .

ترك الأمر لهما . وكان هادئاً نوعاً ما في هذا الخصوص . جلست مارش ومرفقاها على المائدة وقد سندت يداها ذَقْنَها وهي تنظر إليه بدون وعي . وفجأة رفع عينيه الزرقاوين الغائمتين وبدون تفكير نظر مباشرة في عَيْنَيْ مارش . وأجفل كما أجفلت هي . وهو أيضاً انكفأ قليلاً . وأحست مارش بالومضة العارفة المويخة المختلسة نفسها وهي تَثِبُ من عينيه ، فيما كان يدير وجهه جانباً ، وتسقط في روحها كما كانت قد سقطت من عيني الثعلب القاتمتين . زمّتْ فمها وكأنما بألم ، وكأنها نائمة أيضاً .

كانت بانفورد تقول :

ـ حسناً . لا أعرف .

كانت تبدو مُمَانِعَةً وكأنها كانت تخشى أن تُسْتَغَلّ . ونظرت إلى مارش . ولكن وبنظرتها الضعيفة المرتبكة شاهدت فقط الذهول الجزئي المعتاد مرتسماً على وجه صديقتها .

قالت :

ـ لماذا لا تتكلمين يا نيللي ؟؟

ولكن مارش كانت متسعة العينين وصامتة ، وكان الفتى ، وكأنه مسحور ، يراقبها دون أن يحرك عينيه . قالت بانفورد :

ـ تصرّفي . أجيبي على شيء ما .

ودارت مارش برأسها جانباً على نحو طفيف وكأنها تثوب إلى رشدها أو تحاول أن تثوب إلى رشدها . وسألت على نحو آلي :

ـ ماذا تتوقعين مني أن أقول ؟؟

قالت بانفورد :

ـ قولي ما تفكرين به .

قالت مارش :

ـ الأمر كله سواء بالنسبة لي .

وكان ثمة صمت مرة أخرى . وبدا أن ثمة ضوءاً شديداً يكمن في عيني الفتى ، ثاقباً كإبرة .

قالت بانفورد :

ـ وهو كذلك بالنسبة لي . تستطيع أن تقيم هنا إنْ شئت .

وارتسمت على وجهه فجأة وعلى نحو تلقائي ابتسامة تشبه لهباً صغيراً ماكراً . وأطرق رأسه بسرعة ليخفيها ، وبقي مطرق الرأس ، مُخْفِيٌ الوجه .

واختتمت بانفورد حديثها قائلة :

ـ تستطيع أن تقيم هنا إنْ شئتَ . تستطيع أن تُمْتِّعَ نفسك يا هنري .

ومع ذلك لم يُجِبْ بل بقي مطرق الرأس . ثم رفع وجهه . كان برّاقاً بضوء غريب وكأنه متهلل ، وكانت عيناه صافيتين على نحو غريب فيما كان يراقب مارش . أشاحت بوجهها جانباً وفمها يتألم وكأنه قد جُرِحَ ، ووعيها كليل .

وأصبحت بانفورد مرتبكة قليلاً . وراحت ترافب النظرة الثابتة الرائقة لعيني الفتى وهو يحدّق إلى مارش والابتسامة الخفية تومض على وجهه . لم تعرف كيف كان يبتسم إذْ لم تتحرك قسمة واحدة من قسماته . لقد بدت فقط في وميض وتقريباً في تألق الشعيرات الدقيقة على وجنتيه . ثم نظر نظرة متغيرة تماماً إلى بانفورد . وقال بصوته الدمث الناعم :

ـ أنا واثق أنكما طيبتان إلى حد كبير . أنتما طيبتان جداً . أنا متأكد انكما لستما في حاجة إلى أن تتضايقا معي .

قالت بانفورد باضطراب :

ـ اقطعي قليلاً من الخبز يا نيللي .

وأضافت :

ـ ليس في الأمر ما يضايق إنْ كنتَ تحبّ أن تبقى . إنّ الأمر يشبه وجود أخي هنا لبضعة أيام . إنه فتى مثلك .

وردد الفتى قائلاً :

ـ إنّ ذلك لطف كبير منك . ساحب أن أبقى هنا إلى الأبد إنْ كنتما متأكدتين أنني لستُ مشكلة بالنسبة لكما .

قالت بانفورد ذات القلب الدافىء :

ـ كلا ، طبعاً لستَ مشكلة . أقول لك إنّها لمتعة أن يكون لدينا شخص ما في المنزل قربنا .

فقال بصوته الناعم وهو ينظر إلى مارش :

ـ ولكن الآنسة مارش ؟؟

قالت مارش بغموض :

ـ اوه . إنّ كل شيء على ما يرام تماماً طالما أنا المعنية .

وَشَعَّ وجهه وكاد أن يفرك يديه بسرور ، وقال :

ـ حسناً إذن . لشد ما سأحب أن تسمحوا لي بدفع ثمن طعامي وأن أساعد في العمل .

قالت بانفورد :

ـ لستَ في حاجة لأن تتحدث عن الطعام .

ومر يوم أو يومان وتابع الفتى إقامته في المزرعة . كانت بانفورد مفتونة تماماً به . كان ناعماً جداً وَدَمِثاً في الحديث ، دون أن يرغب هو نفسه في قول الكثير ، مفضلاً أن يسمع ما كان عليها أن تقوله ويضحك بطريقته السريعة ، نصف الساخرة . وقد قدم العون باستعداد في العمل ولكن ليس كثيراً جداً . كان يهوى أن يخرج بمفرده

والبندقية في يديه ليراقب ويرى . إذْ أن فضوله المجرَّدَ ذا العين الحادة كان نَهِماً ، وكان في أشد حالات الحرية عندما يكون بمفرده تماماً ، نصف مُخْفيٍّ يراقب .

كان يراقب مارش بشكل خاص . كانت شخصية غريبة بالنسبة له . لقد أثار شكلها ، الذي كان كشكل شاب رشيق ، فضولَه . لقد جعلت عيناها القاتمتان شيئاً ما يرتفع في روحه بإثارة غريبة مغرورة ، عندما كان ينظر فيهما ، إثارة كان يخشى أنْ تُرَى . كانت إثارة عارمة وسرية . وبعد ذلك كان كلامها الغريب الداهية يجعله يضحك بكل كيانه . كان يشعر أنه من المتوجب عليه أن يوغل أكثر . كان مُسَيَّراً بشكل محتوم . ولكنه أنحى التفكير بها جانباً وخرج بالبندقية نحو طرف الغابة .

كان الغسق يهبط عندما رجع إلى البيت ، ومع الغسق كان يهطل مطر رقيق من أمطار أواخر تشرين الثاني . شاهد ضوء النار يتواثب في نافذة غرفة الجلوس ، ضوءاً متواثباً في المجموعة الصغيرة من الأبنية المظلمة . وفكر في نفسه أن الحصول على هذا المكان سيكون شيئاً حسناً . وعندئذ انتابته الفكرة على نحو عنيف : لماذا لا يتزوج مارش ؟؟ ووقف ساكناً في منتصف الحقل لبضع لحظات وقد استحوذت عليه هذه الفكرة ، والأرنب الميت لا يزال يتدلى من يده ، وانتظر ذهنه في ذهول ـ وبدا أنه يحسب ـ ثم ابتسم لنفسه في إذْعَانٍ على نحو غريب . لِمَ لا ؟؟ لِمَ لا حَقّاً ؟؟ كانت فكرة حسنة . ماذا لو كانت سخيفة نوعاً ما ؟؟ ما هَمُّ ؟؟ وماذا لو كانت أكبر منه سِنّاً ؟؟ ما كان ذلك ليهمّ . وعندما فكّر في عينيها القاتمتين المجفلتين والحساستين ابتسم لنفسه في مكر . كان حقاً أكبر منها سِنّاً . كان سيِّدَها .

وبالكاد اعترف بِنِيَّتِهِ حتى لنفسه . احتفظ بهذه النية مثل سرٍّ حتى عن نفسه . لقد كانت برمَّتها غاية في الغموض حتى الآن . سيكون عليه أن يرى كيف سارت الأمور . أجل سيكون عليه أن يرى كيف سارت الأمور . وإذا لم يكن حريصاً فسوف تسخر من الفكرة ببساطة فحسب . وعرف ، على ما هو عليه من الخبث والمكر ، أنه لو ذهب إليها بصدق وقال : «آنسة مارش . أحبك وأريدك أن تتزوجيني» ، فسيكون جوابها المحتوم : «أخرج . أنا لا أريد أيّاً من هذه الحماقات» . لقد كان هذا موقفها

من الرجال و«حماقاتهم» . إذا لم يكن حريصاً فستنقض عليه بسخريتها الضارية المتهكمة وتطرده من المزرعة ومن مخيلتها إلى الأبد . سيكون عليه أن يذهب برِقّة . سيكون عليه أن يمسك بها كما تمسك أيْلاً او دجاجة الأرض عندما تخرج للصيد . لا يعقل أن تمشي بخطى واسعة داخل الغابة وتقول للأيل : «من فضلك اسقط أمام بندقيتي» . كلا ، إنها معركة ماكرة بطيئة . عندما تخرج فعلاً لاصطياد أيل فإنك تستجمع نفسك مع بعضها البعض ، وتلفُّ نفسك داخل نفسك ، وتتقدم خِلْسةً ، قبل الفجر ، إلى الجبال . لا يهمُّ كثيراً ما تفعله ، عندما تخرج للصيد ، بقدر ما يهم ما تشعر به . عليك أن تكون ماكراً وخبيثاً وعلى قدَرٍ كبير من الجاهزية المطلقة . إنَّ ذلك يصبح كالقدَر . قَدَرُكَ يباغت ويقرر قدر الأيل الذي تصطاده . قبل كل شيء وحتى قبل أن تدخل مرمى نظر طريدتك ، ثمة معركة غريبة كالتنويم المغناطيسي . لقد خرجت روحك كصياد لتلبس روح الأيل ، وحتى قبل أن تشاهد أيّاً من الأيائل . وتجاهدُ روحُ الأيّل لتنجو . إنَّ الأمر كذلك حتى قبل أن تصل أية رائحة منك إلى الأيل . إنها معركة عميقة وماكرة من معارك الإرادات والتي تجري في المحجوب . وهي معركة لا تنتهي حتى تنطلق رصاصتك إلى هدفها . وعندما تُثارُ فعلاً إلى الدرجة الصحيحة وتدخل أخيراً في مجال الرمي فإنك لا تسدد عندئذ كما تفعل عندما تطلق النار على زجاجة . إنها إرادتك أنت هي التي تحمل الرصاصة إلى قلب فريستك . إنَّ طيران الرصاصة إلى هدفها هو إسقاط عموديٌّ لقدرك أنت في قدر الأيّل . إنه يحدث كأمنية أسمى ، صنيعة إرادةٍ أسمى ، وليس كحيلةٍ من حِيَل الذكاء .

كان صياداً في الروح ، وليس مزارعاً ، ولا جنديا معروزاً في فوج . وكان أنْ أراد كصياد شاب أن يُسْقِطَ مارش كفريسة له ، ليجعلها زوجته . لذا فقد استجمع نفسه بمكر وبدا أنه ينسحب إلى نوع من الخفاء . لم يكن متأكداً تماماً كيف سيتابع . وكانت مارش كارنب بريةٍ نزّاعةً إلى الارتياب . لذا بقي في الظاهر تماماً ذلك الفتى الغريب العجيب اللطيف الذي سيقيم في المكان أسبوعين .

كان ينشر زنود الخشب من أجل النار عند الأصيل . وحل الظلام باكراً جداً . كان لا يزال سَدِيماً رطباً وبارداً . وكانت السماء تظلم على نحو تتعذر معه الرؤية تقريباً . وبقرب الحامل تَوَضَّعَتْ كومةٌ من زنود الخشب المنشورة والقصيرة . وجاءت مارش لتحملها إلى المنزل أو إلى الحظيرة فيما كان منهمكاً في نشر الزند الأخير . كان يعمل بقميصه الداخلي ولم يلحظها تدنو . جاءت على مضض وكأنها خجلى . شاهدها تنحني على زنود الخشب ذات الأطراف اللمّاعة فتوقّف عن النشر . وسَرَتْ نار كالبرق نازلة رجليه في الأعصاب .

قال بصوته الفتيّ الهادىء :

ـ مارش ؟

فرفعت نظرها إليه من زنود الخشب التي كانت تكدسها وقالت :

ـ نعم ! . .

فنزل بنظره إليها في الغسق . لم يستطع أن يراها بوضوح كبير . قال :

ـ أردت أن أسألك شيئاً ما .

قالت :

ـ حقاً ؟ وماذا كان ذلك ؟

كان الرعب في صوتها الآن . ولكنها كانت سيدة نفسها إلى حد كبير . وبدا صوته ينطلق ناعماً وماكراً ، واخترق أعصابها . قال :

ـ عجباً ! عجباً ماذا تعتقدين أنه ؟؟

فنهضت ووضعت يديها على وركيها ، ووقفت تنظر إليه متحجّرةً دون جواب . واخترق مرة أخرى بقوة مفاجئة . قال وكان صوته ناعماً جداً وبدا بالأحرى مثل لمسة ماكرة بل مثل أدنى لمسة من مخلب قطٍّ ، بدا شعوراً أكثر مما هو صوتاً :

ـ حسناً . حسناً . أردت أن أطلب منك أن تتزوجيني .

وأحست به مارش أكثر مما سمعته . كانت تحاول عبثاً أن تشيح بوجهها جانباً . وبدا أن استرخاءً عظيماً قد استبدَّ بها . وقفت صامتة ورأسها مائل بشكل طفيف إلى

جانب واحد . وبدا الفتى وكأنه ينحني باتجاهها وهو يبتسم على نحو غير منظور . وبدا لها أن شرارات دقيقة انطلقت منه . ثم قالت وعلى نحو مفاجىء جداً :

ـ لا تجرّب أيّاً من حماقاتك عليّ .

وسرت قشعريرة في أعصابه . كان قد أخطأ الهدف . وانتظر لحظة ليستجمع نفسه مرة أخرى . ثم قال وقد وضع في صوته كل النعومة الغريبة وكأنه يلاطفها تدريجياً :

ـ عجباً . إنها ليست حماقة . إنها ليست حماقة . إنني أعني ذلك . إنني أعني ذلك . ما الذي يجعلك لا تصدقينني .

وبدا جريحاً . وكان لصوته قوة غريبة هائلة عليها تجعلها تشعر بالانحلال والاسترخاء . وجاهدت في مكان ما للحصول على طاقتها . وشعرت للحظةٍ أنها كانت مفقودة ـ مفقودة ـ مفقودة . وبدت الكلمة تتأرجح في داخلها وكأنها تموت . وتحدثت فجأة بضربةٍ سخريةٍ مقتضبة وعابرة :

ـ إنك لا تعرف ما تتحدث عنه . أيّ هراءٍ هذا ! . . إنني كبيرة السن ما يكفي لأن أكون أمك .

فالحّ بنعومة وكأنه يمدُّ صوته في دمها :

ـ أجل . إنني فعلاً أعرف ما أتحدث عنه . أجل إنني أعرف ، أعرف تماماً ما أتحدث عنه . لستِ كبيرة السن ما يكفي لتكوني أمي . إن ذلك ليس صحيحاً . وماذا يهمّ حتّى لو كنتِ كذلك ؟

تستطيعين الزواج مني أيّاً كانت أعمارنا . وما هو السِّنُّ بالنسبة لي ؟؟ وما هو السِّنُّ بالنسبة لك ؟؟ السِّنُّ ليس شيئاً .

واستبدت بها نشوة غامرة عندما انتهى . لقد تحدث بسرعة على الطريقة الكورنية السريعة وبدا صوته يغوص في داخلها في مكان ما كانت عاجزة إزاءه .

«السّنُّ ليس شيئاً» ! . . إنَّ إصرار هذه الجملة الثقيل والناعم جعلها تترنح على نحو كليلٍ هناك في الظلام . لم تستطع الإجابة .

ووثب تهلُّلٌ عظيم كالنار على اعضائه . شعر أنه كان قد انتصر . أكمل قائلاً بسرعة ونعومة :

- أريد أن أتزوجك . كما ترين . ولماذا لا ينبغي عليَّ ذلك ؟؟

وانتظر منها أن تجيب . وشاهدها في الغسق متألقة تقريباً . كان جفناها قد انْسَدَلا ، ووجهها نصف مشيح وغائباً عن الوعي . وبدت واقعة تحت نفوذه . ولكنه انتظر متيقظاً . ولم يجرؤ أن يلمسها بعد . قال :

- قولي إذن . قولي إذن أنك ستتزوجينني . قولي . قولي ! . .

كان يُلِحُّ بنعومة . فسالت شاحبة ، عن بُعْدٍ ، كشخص يتألم :

- ماذا ؟؟

كان صوته الآن قريباً وناعماً على نحو لا يمكن تصوره . ودنا قريباً جداً منها .

- قولي نعم .

فأعولت بيأس ، على نحو نصف واضح وكأنها نصف واعية ، وكأنها تتألم كشخص يُحتضر :

- اوه ، لا أستطيع . كيف استطيع ؟؟

فقال بنعومة واضعاً يده برفق على كتفها وهي تقف وقد اشاحت براسها مُطَأْطَأً واصابها دوار :

- تستطيعين . تستطيعين . نعم تستطيعين . ما الذي يجعلك تقولين أنك لا تستطيعين . لا تستطيعين . لا تستطيعين .

وبنعومة مفرطة انحنى للأمام ولمس عنقها بفمه وَذَقْنِهِ فحسب . فصاحت بصرخة مجنونة خافتة كالهستريا وهي تثب مبتعدة وتستدير لتواجهه :

- لا تفعل . ماذا تقصد ؟؟

ولكن لم يكن لديها نَفَسٌ لتتكلم به . كان الأمر وكأنها قد قُبلتْ . فألحَّ بنعومة وقسوة قائلاً :

ـ أقصد ما أقول . أريدك أن تتزوجيني . أريدك أن تتزوجيني . تعرفين ذلك الآن ، أليس كذلك ؟؟ هل تعرفين ذلك الآن ؟ ألا تعرفين ؟؟ ألا تعرفين ؟؟

قالت :

ـ ماذا ؟

فأجاب :

ـ تعرفين .

قالت :

ـ أجل . أعرف أنك تقول ذلك .

ـ وتعرفين أنني أقصد ذلك ، ألا تعرفين ؟؟

ـ أعرف أنك تقول ذلك .

قال :

ـ هل تصدقيني ؟؟

فصمتت بعض الوقت . ثم زَمَّتْ شفتيها وقالت :

ـ لا أعرف ماذا أصدق .

وتناهى صوت بانفورد وهي تنادي من المنزل :

ـ هل أنتما في الخارج هناك ؟؟

فأجاب :

ـ أجل . إننا نُحضر زنود الخشب .

قالت بانفورد على نحو يبعث الغم في النفس :

ـ ظننت أنكما قد ضعتما . أسرعا . هيا هَلُمَّا لتتناول الشاي . إنَّ إبريقَ الشاي يغلي .

فانحنى على الفور ليأخذ جُمْلَ ذراع من زنود الخشب الصغيرة ويحملها إلى المطبخ حيث كُدِّسَتْ في ركن منه . وساعدت مارش في ذلك أيضاً بملء ذراعيها وحمل

زنود الخشب على صدرها وكأنها طفل ثقيل . وكان الليل قد حل باردا .

وعندما أُدخلتْ جميع زنود الخشب مسح الاثنان حذائيهما بضوضاء على كاشطة الأحذية في الخارج ثم فركاهما على ممسحة الأرجل . وأغلقت مارش الباب وخلعت قبعتها القديمة المصنوعة من اللباد ، قبعة فتاة المزرعة . كان شعرها الأسود الكثيف والمتموج محلولا ، وكان وجهها شاحبا ومتوترا . دفعت شعرها الى الخلف بغموض وغسلت يديها . ودخلت بانفورد المطبخ المُضاء على نحو باهت مسرعة لتأخذ من الفرن الكعكات المسطحة المستديرة التي كانت قد أبقتها فيه للتسخين . وسألت بنكد :

ـ ما الذي كنتما تفعلانه طوال هذا الوقت ؟ ظننت أنكما لن تدخلا أبدا . لقد مرت دهور منذ توقفتما عن النشر . ماذا كنتما تفعلان في الخارج هناك ؟؟

قال هنري :

ـ حسنا . كان علينا أن نسدَّ ذلك الثقب في الحظيرة لإبقاء الجرذان في الخارج .

فقالت بانفورد متحدية :

ـ عجباً . كان في استطاعتي أن أراكما واقفين هناك في الحظيرة . كان في مقدوري أن أرى قميصك الداخلي .

ـ أجل . كنت أضع المنشار في مكانه فحسب .

ودخلوا لتناول الشاي . كانت مارش بَكْماء تماما . كان وجهها شاحباً ومتوترا وغامضا .

وكان الفتى ، الذي كانت ترتسم على وجهه دائما الهيئة المتوردة المستقلة وكأنه كان يُبقي نفسه مع نفسه ، قد أتى لتناول الشاي في قميصه الداخلي وكأنه في بيته . كان ينحني فوق صحنه وهو يأكل طعامه . قالت بانفورد بضغينة :

ـ ألا تشعر بالبرد وأنت بقميصك الداخلي ؟؟

رفع نظره إليها وذقنه قريبة من صحنه وعيناه واضحتان رائقتان دون ارتعاش فيما راح يراقبها ، وقال بكياسته الناعمة المألوفة :

ـ كلا . لا أشعر بالبرد . إنَّ الطقس أدفأ بكثير هنا في الداخل مما هو في الخارج كما ترين .

قالت بانفورد وقد شعرت بالغيظ منه :

ـ آمل ذلك .

كان لديه تأكيد ذَمِتٌ وغريب ونظرة برّاقة من عينين متسعتين أزعجت أعصابها هذا المساء .

قال بنعومة وكياسة :

ـ ولكن ربما كنت لاتحبين أن آتي الى الشاي بدون سترتي . لقد نسيتُ ذلك .

قالت بانفورد :

ـ اوه . إنني لا أكترث لذلك .

على الرغم من أنها كانت فعلا تكترث لذلك . قال :

ـ سأذهب وأحضرها . هل أقوم ؟؟

وانخفضت عينا مارش الداكنتان ببطء إليه . وقالت بنبرتها الغريبة ذات الخُنَّة :

ـ كلا . لا تزعج نفسك . إنْ كنتَ تشعر بأنك على ما يرام كما أنت فابقَ كما أنت .

كانت تتحدث بسلطة فظة . قال :

ـ أجل . انني أشعر بأنني على ما يرام إنْ لم أكن فظا .

قالت بانفورد :

ـ إنَّ ذلك يُعْتَبَرُ عادة فظاظة ولكننا لا نكترث .

فهتفت مارش فجأة :

ـ تابعي « يُعتبر فظاظة » ، من يَعْتَبِرُ ذلك فظاظة ؟؟

قالت بانفورد وقد شمخت بأنفها قليلا خلف نظارتها وهي تشعر أن طعامها قد توقف في حنجرتها :

ـ عجبا . أنت يا نيللي تعتبرين ذلك من أيِّ شخص آخر .

ولكن مارش كانت قد أصبحت مرة أخرى غامضة وغير مكترثة وهي تمضغ طعامها وكأنها لم تكن تعلم أنها كانت تأكل على الإطلاق . ونظر الفتى من فتاة إلى الأخرى بعينين براقتين مُراقِبَتَيْنْ .

كانت بانفورد قد أُغِيظتْ . وعلى الرغم من كل كياسته الدمثة وصوته الناعم بدا الفتى بالنسبة لها وقحا . لم تكن تحب أن تنظر اليه . لم تكن تحب أن تقابل عينيه اليقظتين الصافيتين ، لم تكن تحب أن ترى التوهج الغريب في وجهه ، ووجنتيه بشعرهما الدقيق الناعم ، وجلده المتورد الذي كان باهتا تماما والذي بدا مع ذلك يشتعل بحرارة حياة غريبة . لقد جعلها النظر إليه تشعر بالمرض قليلا : إن نوعية حضوره الجسديِّ كانت ثاقبة جدا ، ساخنة جدا .

وبعد تناول الشاي كان المساء هادئاً جداً . كان الفتى نادراً ما يدخل القرية . وكقاعدة ، كان يقرأ : كان قارئاً عظيماً في ساعاته الخاصة . أيْ ، عندما كان يبدأ فعلا كان يقرأ باستغراق . ولكنه لم يكن متلهفا جدا للبدء . كان غالبا ما يتجول في الحقول وعلى طول الأسيجة بمفرده في ظلام الليل وهو يطوف خلسة بغريزة غريبة من أجل الليل ويصغي الى الأصوات البرية .

في هذه الليلة ، على أية حال ، أخذ كتاب «الكابتن مين ريد» من رف بانفورد ، وجلس وركبتاه متباعدتان باتساع وغَطَّس نفسه في قِصَّتِه . كان شعره الأشقر المائل إلى البنيِّ طويلا استقر على رأسه كقبعة سميكة ، وقد سُرِّحَ جانبا . كان لايزال في قميصه الداخلي ، وبانحنائه للأمام تحت ضوء المصباح بركبتيه اللتين بقيتا متباعدتين باتساع والكتاب في يده وشكله برمته منهمك في عملية القراءة النشيطة نوعا ما ، كان يعطي غرفة جلوس بانفورد مظهرَ معسكرٍ لسقْطِ المَتاع . وقد استاءت من

هذا الأمر . إذْ كان لديها على أرضية غرفة جلوسها بساط أحمرُ زاهٍ ودائرةٌ بقعةٍ قاتمة ، وكان للمدفأة آجُرّاتٌ خُضْرٌ أنيقة ، وكان البيانو ينتصب مفتوحاً مع أحدث نوتات موسيقى الرقص : كانت تعزف بشكل جيد نماما : وكانت على الجدران إوزّات الثّمّ وزنابق الماء البيض التي رَسَمَتْها مارش بيدها . علاوة على ذلك ، كان الجو عائليا ، مصقولا ، وجميلا بزنود الخشب التي كانت تحترق بارتعاش وعلى نحو جميل في الموقد ، وقد أُسْدِلَت الستائر السميكة وأُغْلِقت جميع الأبواب وراحت أشجار الصنوبر تهسهس وترتجف مع الريح في الخارج . لقد استاءت من الفتى الجاهل ذي الساقين الطويلتين وهو يُبْقِي ركبتيه الخاكيتين متباعدتين ويجلس هناك وقد زُرِّرَتْ على رسغيه الحمراوين السميكين أطراف أكمام قميصه العسكرية . كان يقلب صفحة من وقت لآخر ، ومن وقت لآخر كان يطلق نظرة حادة على النار وهو يَرُصُّ زنود الخشب .

وبعد ذلك كان يغطّس نفسه مرة أخرى في مُهِمّةِ القراءة الكثيفة المعزولة .

كانت مارش عند الجانب البعيد من المائدة تخيط « الكروشيه » على نحو متشنج . كان فمها مزموما بطريقة غريبة كما كان عندما حلمت بأن ذيل الثعلب الكثيف أحرقه ، وكان شعرها الأسود الجميل والمتموج يبيم في خصلات . ولكن شكلها الخارجي بأسره كان مستغرقا في جلسته ، كأنها هي نفسها كانت على مبعدة أميال . وفي نوع من شبه الحلم بدا أنها تسمع الثعلب يغني حول المنزل في الريح ، يغني على نحو متوحش وبعذوبة كَمَسٍّ من الجنون . وبيدين حمراوين لكنهما حسنتا التصوير راحت تحيك القطن الأبيض ببطء شديد وعلى نحو أخرق .

كانت بانفورد أيضا تحاول أن تقرأ وهي تجلس في كرسيها الخفيض . لكنها شعرت بالتململ بين هذين الإثنين . وظلت تتحرك وتنظر حولها وتصغي إلى الريح وتلقي نظرات عجلى خلسة على رفيقيها من واحد إلى الآخر . وكانت مارش ، الجالسة على كرسي قائم بركبتيها المتلاقيتين في بنطالها القصير الضيق والتي كانت تُحِبُّ « الكروشيه » ببطء وجهد ، تمر أيضاً بمحنة .

قالت بانفورد :

- اوه يا عزيزتي . إن عَـيْنَيَّ متوعكتان هذه الليلة .

وضغطت أصابعها على عينيها .

رفع الفتى بصره إليها بنظرته البرّاقة الصافية ولكنه لم يتكلم . قالت مارش بشرود :

- هل هما كذلك يا جيل ؟

ثم بدأ الفتى يقرأ ثانية وعادت بانفورد بحكم الظرف الى كتابها . ولكنها لم تستطع البقاء ساكنة . بعد فترة رفعت بصرها إلى مارش وارتسمت على وجهها النحيل ابتسامة صغيرة غريبة وخبيثة تقريباً . قالت فجأة :

- بِنْسٌ(*) واحد لها يا نيللي .

ونظرت مارش حولها بعينين سوداوين مجفلتين واسعتين وانقلبت شاحبة وكأنما بفعل الرعب .

كانت تصغي الى الثعلب وهو يغني برقة شديدة ، برقة شديدة ، فيما كان يطوف حول المنزل . قالت بغموض :

- ماذا ؟

قالت بانفورد بتهكم :

- بِنْسٌ واحد لها أو بنسان إذا كانت بكلّ ذلك العمق .

كان الفتى يراقب بعينين صافيتين برّاقتين من تحت المصباح .

وتناهى صوت مارش الغامض :

- عجبا ! . من أجل ماذا تودين أن تبددي نقودك ؟؟

(*) البنس : جزء من اثني عشر جزءاً من الشلن ، أو جزء من مائتين واربعين جزءاً من الجنيه الانكليزي . المترجم .

قالت بانفورد :

ـ اعتقدتُ أنها ستُنْفق على ما يرام .

قالت مارش :

ـ لم أكن أفكر بأيِّ شيء فيما عدا الطريقة التي كانت الريح تهب بها .

أجابت بانفورد :

ـ اوه يا عزيزتي . كان في مقدوري الحصول على فكرة أصيلة كتلك بنفسي . أخشى أن أكون قد بَدَّدْتُ نقودي هذه المرة .

قالت مارش :

ـ حسنا . لست في حاجة إلى أن تدفعي .

ضحك الفتى فجأة . ونظرت المرأتان اليه : وقد بدت مارش مصابة بالدهشة وكأنها عرفت بشق النفس أنه كان هناك . سأل :

ـ عجبا ! . هل تدفعان دائما في هذه المناسبات ؟؟

قالت بانفورد :

ـ اوه ، أجل . اننا نفعل ذلك دائما . يكون عليَّ أحيانا أن أمرِّر شلنا* في الأسبوع إلى نيللي أوقات الشتاء . إنَّ الأمر يكلف أقل بكثير في الصيف .

فضحك قائلا :

ـ ماذا ؟؟ تدفع كل منكما لأفكار الأخرى ؟؟

ـ أجل ، عندما نصل إلى نهاية كل شيء آخر بشكل مطلق .

ضحك بسرعة وقد غضَّنَ أنفه على نحو حاد مِثْلَ جَرْوٍ ضاحكاً بسرور سريع وعيناه تشعان .

قال :

ـ إنها المرة الأولى في حياتي التي أسمع فيها بذلك .

(*) الشلن : جزء من عشرين جزءاً من الجنيه الاسترليني المترجم .

قالت بانفورد بأسى :

ـ أظن أنك ستسمع بذلك غالبا بما فيه الكفاية لو مكثتَ شتاءً في مزرعة « بيلي فارم » .

سأل :

ـ هل تسأمان جدا عندئذ ؟؟

قالت بانفورد :

ـ نضجر جدا .

قال بوقار :

ـ وَلكن لِمَ عليكما أن تضجرا ؟؟

قالت بانفورد :

ـ وَمَنْ لن يضجر ؟؟

قال بوقار :

ـ إنني متأسف لأن أسمع ذلك .

قالت بانفورد :

ـ يجب أن تكون كذلك إنْ كُنْتَ تأمل قضاءَ وقت مثير هنا .

نظر إليها طويلا وبوقار ، وقال بجدّيته الشابة الغريبة :

ـ حسنا . إنه مثير تماما وبما فيه الكفاية بالنسبة لي .

قالت بانفورد :

ـ إنني مسرورة لسماع ذلك .

وعادت إلى كتابها . كان ثمة الكثير من خيوط الشيب في شعرها الضئيل الرقيق الآن ، على الرغم من أنها لم تكن قد بلغت الثلاثين بعد . ولم ينظر الفتى للأسفل ، بل حَوَّلَ عينيه إلى مارش التي كانت تجلس بفم مزموم ، وهي تُحْبِكُ « الكروشيه » بِجِدّ وعيناها واسعتان وشاردتان .

كان لها جلد دَقِيقٌ شاحب دافىء وأنف رقيق . وبدا فمُها المزموم سليطا .

ولكنَّ المظهرَ السليطَ تناقض مع قوس حاجبيها الداكنين الفضولي المرفوع ، ومع اتساع عينيها ، مظهرَ تساؤل وغموض مجفلين .

كانت تُصيخ السمعَ مرة أخرى للثعلب الذي بدا أنه أوغل في التجول في الليل .

ومن تحت حافة ضوء المصباح جلس الفتى ووجهه ناظر للأعلى يراقبها بصمت ، وعيناه مستديرتان وصافيتان جدا ومُرَكِّزَتَان . وكانت بانفورد تلقي عليه نظرة عجلى من تحت شعرها وهي تقضم أصابعها بنزق . كان يجلس هناك ساكنا تماما وقد مال وجهه المتورد الى الأعلى من مستوى الضوء الخفيض ، على حافة الإظلام ، وهو يراقب بتركيز ذاهل تام .

ورفعت مارش فجأة عينيها الكبيرتين الداكنتين عن « الكروشيه » ورأته . وأجفلت مطلقة صرخة تعجب صغيرة . صرخت لا إراديّاً وكأنها قد أجفلت على نحو مريع :

ـ ها هو هناك ! . .

نظرت بانفورد حولها في انشداه وهي تنتصب في جلستها . وصاحت :

ـ ماذا ألَمَّ بك يا نيللي ؟؟

ولكن مارش كانت تنظر بعيدا إلى الباب ، وقد تورد وجهها بلون ورديّ شهي . قالت بنزق :

ـ لا شيء ! لا شيء ! ألايستطيع المرء أن يتكلم ؟؟

قالت بانفورد :

ـ أجل ، لو تكلَّمْتِ بإدراك . ماذا كنتِ تعنين ؟؟

صاحت مارش بنكد :

ـ لا أعرف ماذا كنتُ أعني .

فصرخت بانفورد المسكينة المفزوعة :

ـ أوه يا نيللي . آمل ألاّ تكوني قد أصبحت سريعة الاهتياج وعصبية المزاج . أشعر أنني لا أستطيع أن أتحمل شيئاً آخر . مَنْ كنتِ تعنين ؟؟ هل كنتِ تعنين هنري ؟؟

قالت مارش باقتضاب :

ـ أجل . اعتقد ذلك .

ما كانت لتُقِرُّ بالثعلب أبدا . فأعولت بانفورد قائلة :

ـ أوه يا عزيزتي . لقد هُوجِمَتْ جميع أعصابي هذه الليلة .

في الساعة التاسعة أحضرت مارش صينية مع خبز وجبن وشاي . كان هنري قد اعترف أنه يودّ تناول فنجان من الشاي . شربت بانفورد كوبا من الحليب وأكلت القليل من الخبز .

وسرعان ما قالت :

ـ إنني ذاهبة الى الفراش يا نيللي . كُلّي أعصاب هذه الليلة . هل ستأتين ؟؟

قالت مارش :

ـ أجل ، سآتي في الدقيقة التي سأُرْجِعُ فيها الصينية .

قالت بانفورد بنكد :

ـ لا تتأخري إذن . تصبح على خير يا هنري . سترى فيما إذا كانت النار في مَأْمَنٍ منَ الخطر إذا صَعَدْتَ أخيرا ، أليس كذلك ؟؟

أجاب بطريقته التي تعيد التأكيد :

ـ أجل يا آنسة بانفورد . سأتأكد من أنها آمنة .

كانت مارش تشعل الشمعة لتذهب الى المطبخ . أخذت بانفورد شمعتها وصعدت إلى الطابق العُلْوِيّ . عندما عادت مارش الى النار قالت له :

ـ أعتقد أنه يمكننا أن نثق بأنك ستطفىء النار وكل شيء ؟

كانت تقف هناك ويدها على وركها ، وقد استرخت إحدى ركبتيها وأشاحت رأسها بخجل وكأنها لم تكن قادرة على النظر إليه . كان وجهه مرفوعا يراقبها . قال بنعومة :

ـ تعالي واجلسي دقيقة ..

ـ كلا . سأذهب . ستكون جيل في انتظاري وستصبح قلقة إذا لم آت .

سألها :

ـ ما الذي جعلك تقفزين على ذلك النحو هذا المساء ؟؟

فأجابت وهي تنظر إليه :

ـ متى قفزت ؟؟

قال :

ـ عجبا . لقد فعلتِ ذلك الآن . عندما صرختِ .

قالت :

ـ اوه . عندئذ . عجبا . اعتقدتُ أنك كنت الثعلب .

وتلوّى وجهها في ابتسامة غريبة نصف ساخرة . سأل بنعومة :

ـ الثعلب ؟؟ لماذا الثعلب ؟؟

ـ لماذا ؟ . ذات مساء في الصيف الماضي وعندما كنتُ في الخارج ومعي البندقية رأيتُ الثعلب في العشب عند قدميَّ تقريبا ، وهو يرفع نظره مباشرة إليَّ . لا أعرف . أعتقد أنه ترك انطباعا عليَّ .

أشاحت برأسها جانبا مرة أخرى وتركت إحدى قدميها تهيم في استرخاء على نحو واعٍ للذات . سأل الفتى :

ـ وهل أطلقتِ عليه النار ؟؟

ـ كلا . لقد سبب لي إجفالاً هائلا وهو يحدّق مباشرة إليَّ كما فعل ، ثم يتوقف لينظر إلى الخلف نحوي من فوق كتفه وبضحكة على وجهه .

ردد هنري قولها ضاحكا أيضا :

ـ بضحكة على وجهه ! .. لقد أفزعك ، أليس كذلك ؟؟

ـ كلا . لم يفزعني . لقد ترك انطباعا عليَّ . ذلك كل ما في الأمر .

فضحك الضحكة الصغيرة السريعة الغريبة نفسها مثل جرو مُغَضِّناً أنفه وقال :

ـ واعتقدتِ أنني كنت الثعلب ، أليس كذلك ؟

قالت :

ـ أجل . اعتقدتُ ذلك في تلك الدقيقة . ربما كان في مخيّلتي دون أن أعرف ذلك .

قال بالضحكة الفتية نفسها :

ـ ربما اعتقدتِ أنني أتيتُ لأسرقَ دجاجاتكما أو شيئا ما .

ولكنها نظرت إليه فحسب بعين واسعة قاتمة لا تعبير فيها . قال :

ـ إنها المرة الأولى في حياتي التي أُحْسَبُ فيها ثعلبا . ألن تجلسي دقيقة ؟ ؟

كان صوته ناعما ومتملقا جدا . قالت :

ـ كلا . ستكون جيل في الانتظار .

ولكنها مع ذلك لم تذهب ، بل وقفت وإحدى قدميها في استرخاء وقد أشاحت بوجهها جانبا خارج دائرة الضوء بالضبط . قال وهو يخفض صوته بهدوء أكثر :

ـ ولكن ألن تجيبي على سؤالي ؟؟

ـ لا أعرف أيَّ سؤال تقصد .

ـ بل تعرفين . طبعا تعرفين . أقصد سؤالي لك أن تتزوجيني .

قالت بفتور :

ـ كلا . لن أجيب على ذلك السؤال .

وارتسمت على أنفه الضحكة الفتية الغريبة مرة أخرى :

ـ ألن تفعلي ؟ هل ذلك لأنني كالثعلب ؟؟ هل ذلك هو السبب ؟؟

ومع ذلك ضحك . فاستدارت ونظرت إليه نظرة بطيئة طويلة . قال :

ـ لن أدع ذلك يضعك ضدي . دعيني أُخْفِضِ المصباح وتعالي واجلسي دقيقة .

وضع يده الحمراء تحت وهج المصباح ، وفجأة جعل الضوء معتما جدا . ووقفت مارش هناك في العتمة ظليلة تماما ولكن دون حراك . نهض بصمت على

أقدامه بساقيه الطويلتين . كان صوته الآن ناعما على نحو استثنائي وَمُوحٍ لا يكاد يُسْمَع .

قال :

- ستبقين دقيقة . دقيقة فقط .

ووضع يده على كتفها . أشاحت بوجهها عنه . قال بالنعومة نفسها وبإيحاء الضحك في نبرته ، سخرية ماكرة :

- انني متأكد أنك لا تعتقدين فعلا أنني كالثعلب . هل تعرفين ؟؟

وسحبها برقة باتجاهه وقبّل عنقها بنعومة . فأجفلت وارتعدت وطأطأت . ولكن يده الشابة القوية أمسكتها وقبّلها بنعومة مرة أخرى ، أيضاً على عنقها ، إذْ أنَّ وجهها كان مشيحا . وتناهى صوته الناعم المتواني :

- ألن تجيبي على سؤالي ؟ ؟ ألن تفعلي ذلك الآن ؟؟

كان يحاول أن يدنيها ليقبّلَ وجهها . وقبّل وجنتها بنعومة قرب أذنها .

وفي تلك اللحظة سُمِعَ صوت بانفورد يدعو بنكد ونزق من الطابق العُلويّ . صرخت مارش وهي تجفل وتنتصب :

- ها هي جيل .

وعندما فعلت ذلك قبّلها على فمها وبسرعة البرق قبلة سريعة عابرة . وبدا أنها اشتعلت عبر كل نسيج فيها . أطلقت صرخة قصيرة غريبة . وألح بنعومة :

- ستجيبين ، أليس كذلك ؟ ستجيبين ؟؟

وتناهت صرخة بانفورد الخافتة من الظلام الخارجي :

- نيللي ! نيللي ! من أجل أيِّ شيء تأخرتِ طويلا هكذا ؟ ؟

ولكنه أمسكها بإحكام ، وراح يغمغم بتلك النعومة والإلحاح المفرطين :

- ستجيبين ، أليس كذلك ؟؟ قولي أجل ! قولي أجل !

وغمغمت مارش التي شعرت وكان النار قد اندلعت فيها وآذتها ، وكأنها لم تعد تستطيع تقديم المزيد :

ـ أجل ! أجل ! أيّ شيء تريده ! أيّ شيء تريده ! فقط دعني أذهب ! فقط دعني أذهب ! إنّ جيل تنادي .

قال بمكر :

ـ تعرفين أنك قد وَعَدْتِ .

ـ أجل ! أجل ! إنني أعِد .

وارتفع صوتها فجأة الى صرخة ثاقبة :

ـ حسنا يا جيل ، إنني قادمة .

وتركها تذهب وقد أجفل ، وذهبت مباشرة الى الطابق العُلويّ .

وفي الصباح وعند الفطور ، وبعد أن كان قد طاف بالمكان وعُني بالماشية وفكر في قرارة نفسه أن المرء يستطيع أن يعيش بسهولة كافية هنا ، قال لبانفورد :

ـ هل تعرفين ماذا يا آنسة بانفورد ؟

قالت بانفورد العصبية ذات الطبيعة الطيبة :

ـ حسنا ، ماذا ؟؟

نظر إلى مارش التي كانت تفرش المربى على خبزها وقال لها :

ـ هل أخبرها ؟؟

رفعت نظرها إليه ، واندفع لون قرمزيٌّ عميق فوق وجهها . قالت :

ـ أجل ، إذا كُنْتَ تقصد جيل . آمل أنك لن تذهب لتتكلم في جميع أرجاء القرية ، ذلك كل ما في الأمر .

وابتلعت خبزها الجاف بصعوبة . قالت بانفورد وهي ترفع بصرها بعينين واسعتين مُتعبَتين احمرّتا بشكل طفيف :

ـ ماذا يحدث ؟؟

كانت فتاة نحيلة ، ضئيلة وصغيرة البنية ، وكان شعرها الدقيق والرقيق قد

قُصَّ قصيرا ، لذا فقد تدلى بنعومة على وجهها المتعب بلونيه الأشيب والبني الباهتين . قال وهو يبتسم كَمَنْ لديه سرٌّ :

ـ حسنا ! . . ماذا تعتقدين ؟؟

قالت بانفورد :

ـ وكيف لي أن أعرف ؟؟

قال مسرورا من نفسه وقد اتَّخَذَ عينين برّاقتين وابتسامة :

ـ ألا تستطيعين أن تحزري ؟؟

ـ إنني واثقة أنني لا أستطيع . وما هو أكثر من ذلك ، لن أحاول .

ـ نيللي وأنـا سنتزوج .

وضعت بانفورد سكينها من أصابعها المرهفة النحيلة وكأنها لن تأخذها أبدا لتأكل المزيد ، وحدقت بعينين مشدوهتين مُحْمَرَّتَيْن ، وصرخت قائلة :

ـ أنتما ماذا ؟؟؟

ـ نحن سنتزوج . أليس كذلك يا نيللي ؟

واستدار إلى مارش . قالت مارش باقتضاب :

ـ أنت تقول ذلك على أية حال .

ولكنها توردت مرة أخرى باحمرار معذّب . هي أيضاً لم يعد في مقدورها الابتلاع .

ونظرت بانفورد إليها كطائر أصيب بعيار ناريّ : طائر صغير مريض ومسكين . حدقت إليها بكل روحها الجريحة في وجهها ، إلى مارش التي توردت على نحو عميق ، وهتفت يائسة :

ـ أبداً ! . . .

قال الفتى المشرق والمتأمل في رضىً وحبور :

ـ إنَّ ذلك صحيح تماما .

أشاحت بانفورد وجهها جانبا وكأن منظر الطعام على المائدة قد أسقمها . جلست هكذا بضع لحظات وكأنها مريضة . ثم نهضت على قدميها وهي تضع إحدى يديها على حافة المائدة وصرخت :

ـ لن أصدق ذلك أبدا يا نيللي ! . . إنّ ذلك مستحيل بشكل مطلق .

كان يشوب صوتها الكئيب والمضطرب صبغةٌ من الغضب الساخن واليأس .

سأل الفتى بكل ما في صوته من الوقاحة المخملية الناعمة :

ـ لماذا ؟ لماذا لا ينبغي عليك أن تصدقي ذلك ؟؟

نظرت بانفورد إليه من عينيها الواسعتين الغامضتين وكأنه كان مخلوقا ما في متحف ، وقالت بفتور :

ـ اوه . لأنه لا يمكنها أن تكون حمقاء إلى هذا الحد . لا يمكنها أن تفقد احترامها لنفسها إلى مثل هذا الحد .

كان صوتها باردا وكئيبا وجارفا ، فسألها الفتى :

ـ بأية طريقة ستفقد احترامها لنفسها ؟؟

نظرت بانفورد إليه بثبات غامض من خلف نظارتها وقالت :

ـ إذا لم تكن قد فقدتها لِلْتَوّ .

أصبح أحمر اللون جدا ، وقرمزيّاً ، تحت النظرة المحدّقة البطيئة الغامضة من خلف النظارة .

قال :

ـ لا أرى ذلك على الإطلاق ..

قالت بانفورد بنبرة البُعْدِ الشاردة المعتدلة والتي جعلت كلماتها حتى أكثر إهانةً :

ـ من المحتمل أنك لا ترى ذلك . لا يجب عليَّ أن أتوقع أنك سترى ذلك .

فجلس متيبّسا في كرسيِّه وهو يحدق بعينين زرقاوين ساختين من وجهه القرمزيّ . وعَبَرَ سيماءه مظهرٌ بَشِع . قالت بانفورد بصوتها الكئيب المنجرف المهين :

ـ إنّ كلمتي هي أنها لا تعرف من أجل ماذا تخدع نفسها .

قُصَّ قصيرا ، لذا فقد تدلى بنعومة على وجهها المتعب بلونيه الأشيب والبني الباهتين . قال وهو يبتسم كَمَنْ لديه سرٌّ :

- حسنا ! . . ماذا تعتقدين ؟؟

قالت بانفورد :

- وكيف لي أن أعرف ؟؟

قال مسرورا من نفسه وقد اتَّخَذَ عينين برّاقتين وابتسامة :

- ألا تستطيعين أن تحزري ؟؟

- إنني واثقة أنني لا أستطيع . وما هو أكثر من ذلك ، لن أحاول .

- نيللي وأنا سنتزوج .

وضعت بانفورد سكينها من أصابعها المرهفة النحيلة وكأنها لن تأخذها أبدا لتأكل المزيد ، وحدقت بعينين مشدوهتين مُحَمَرَّتَيْن ، وصرخت قائلة :

- أنتما ماذا ؟؟؟

- نحن سنتزوج . أليس كذلك يا نيللي ؟

واستدار إلى مارش . قالت مارش باقتضاب :

- أنت تقول ذلك على أية حال .

ولكنها توردت مرة أخرى باحمرار معذّب . هي أيضاً لم يعد في مقدورها الابتلاع .

ونظرت بانفورد إليها كطائر أصيب بعيار ناريّ : طائرٍ صغير مريض ومسكين . حدقت إليها بكل روحها الجريحة في وجهها ، إلى مارش التي توردت على نحو عميق ، وهتفت يائسة :

- أبداً ! . . .

قال الفتى المشرق والمتأمل في رضىً وحبور :

- إنَّ ذلك صحيح تماما .

أشاحت بانفورد وجهها جانبا وكأن منظر الطعام على المائدة قد أسقمها . جلست هكذا بضع لحظات وكأنها مريضة . ثم نهضت على قدميها وهي تضع إحدى يديها على حافة المائدة وصرخت :

ـ لن أصدق ذلك أبدا يا نيللي ! . . إنَّ ذلك مستحيل بشكل مطلق .

كان يشوب صوتها الكثيب والمضطرب صبغةٌ من الغضب الساخن واليأس .

سأل الفتى بكل ما في صوته من الوقاحة المخملية الناعمة :

ـ لماذا ؟ لماذا لا ينبغي عليك أن تصدقي ذلك ؟؟

نظرت بانفورد إليه من عينيها الواسعتين الغامضتين وكأنه كان مخلوقا ما في متحف ، وقالت بفتور :

ـ اوه . لأنه لا يمكنها أن تكون حمقاء إلى هذا الحد . لا يمكنها أن تفقد احترامها لنفسها إلى مثل هذا الحد .

كان صوتها باردا وكئيبا وجارفا ، فسألها الفتى :

ـ بأية طريقة ستفقد احترامها لنفسها ؟؟

نظرت بانفورد إليه بثبات غامض من خلف نظارتها وقالت :

ـ إذا لم تكن قد فقدتها لِلْتَوّ .

أصبح أحمر اللون جدا ، وقرمزيّاً ، تحت النظرة المحدّقة البطيئة الغامضة من خلف النظارة .

قال :

ـ لا أرى ذلك على الإطلاق ..

قالت بانفورد بنبرة البُعْدِ الشاردة المعتدلة والتي جعلت كلماتها حتى أكثر إهانةً :

ـ من المحتمل أنك لا ترى ذلك . لا يجب عليَّ أن أتوقع أنك سترى ذلك .

فجلس متيبّسا في كرسيِّهِ وهو يحدق بعينين زرقاوين ساخنتين من وجهه القرمزيّ . وعَبَرَ سيماءه مظهرٌ بَشِع . قالت بانفورد بصوتها الكئيب المنجرف المهين :

ـ إنَّ كلمتي هي أنها لا تعرف من أجل ماذا تخدع نفسها .

قال الفتى في انفعال :

ـ وماذا يعنيك من الأمر على أية حال ؟؟

فردّتْ بكآبة وحقد :

ـ أكثر مما يعنيك أنتَ ربما .

فاهتز قائلا :

ـ اوه . حقّاً ! . . لا أرى ذلك على الإطلاق .

أجابت على نحو جارف :

ـ كلا . لن ترى ذلك .

قالت مارش وهي تدفع شعرها الى الخلف وتنهض على نحو أخرق :

ـ على أية حال ، لا يحسن أن تتجادلا في هذا الخصوص .

وأمسكت الخبز وإبريق الشاي وخَطَتْ مبتعدة إلى المطبخ .

وتركت بانفورد أصابعها تهيم على جبينها وعلى طول شعرها ، كمن مَسَّهُ ذهول . ثم استدارت وذهبت الى الطابق العُلْوِيّ .

جلس هنري متيبّسا ومتجهّما في كرسيّه ، ووجهه وعيناه على نار . وكانت مارش تأتي وتذهب لمسح المائدة . ولكن هنري ظل جالسا متيبّسا في انفعال . لم يلحظها . كانت قد استردّتْ رباطة جأشها وبشْرَتَها الناعمة بل ذات اللون القشدي . ولكن فمها كان مزموما . وكانت ترمقه كل مرة تأتي لتأخذ أشياء من المائدة ، ترمقه من عينيها الكبيرتين الفضوليتين ، بدافع الفضول أكثر من أيّ دافع آخر . غلام متجهم أحمر الوجه وطويل كهذا ! . . .

كان ذلك كل ما كان عليه . بدا بعيدا جدا عنها وكأن وجهه الأحمر كان مدخنة حمراء فوق كوخ عبر الحقول ، وكانت تنظر إليه بشكل مجرد فحسب كما لو من مكان قصيّ .

أخيرا نهض ومشى بطيئا إلى الخارج ، إلى الحقول ، مصطحبا البندقية . وعاد آخر الأمر عند وقت الغداء والشيطان لا يزال في وجهه ، ولكنّ سلوكه كان مهذبا

تماما . لم ينبس أيٌّ منهم بأيِّ شيء يُذْكَر . جلس كل منهم عند الحافة الحادة لمثلث على بُعْدٍ لا سبيلَ الى معالجته . في الأصيل خرج مرة أخرى فورا مصطحبا البندقية . ودخل عند حلول الليل ومعه حمامة وأرنب . وبقي في الداخل طوال المساء ، لكنه لم يفتح فمه إلاّ بصعوبة . كان في مزاج عسير ، شاعرا أنه كان قد أُهين .

كانت عينا بانفورد حمراوين ، ومن الواضح أنها كانت قد استرسلت في البكاء . لكن سلوكها كان أكثر نَأْياً وشموخا من ذي قبل ، وكانت الطريقة التي راحت تدير بها رأسها كلما تحدث على الإطلاق ، كما لو كان جَوّالا أو متطفلا وضيعا على تلك الشاكلة ، تجعل عينيه الزرقاوين تَسْوَدّان تقريبا من الغيظ . كان وجهه يبدو أكثر تحجُّراً ، لكنه لم ينس قط أداءه المهذب إذا فتح فمه للتحدث .

بدت مارش تزدهر في هذا الجو . كان يبدو أنها تجلس بين الخصمين بابتسامة صغيرة شريرة على وجهها وهي تُمتّع نفسها . كان ثمة نوع من الرضى الذاتي حتى في الطريقة التي راحت فيها تُحرِّكُ «الكروشيه» بجدٍ هذا المساء .

عندما أوى الى الفراش استطاع الفتى ان يسمع المرأتين تتحدثان وتتجادلان في غرفتهما .

جلس في سريره وَمَدَّ أذنيه ليسمع ما كانتا تقولانه . ولكنه لم يكن في مقدوره أن يسمع شيئا . كان الحديث بعيدا جدا . مع ذلك استطاع أن يسمع صوت القطرات الناعمة الكثيبة المتساقطة من صوت بانفورد ، وَجَرَّسَ مارش الأعمق .

كان الليل هادئا وصقيعيا . وكان ثمة نجوم كبيرة تقدح في الخارج خلف قمم خطوط أعالي أشجار الصنوبر . وأصغى وأصغى . وعلى مبعدة سمع ثعلبا يعوي ، وكانت الكلاب من المزارع تنبح رَدّاً عليه . ولكنْ لم يكن ذلك ما أراد أن يسمعه . كان يريد أن يسمع ما كانت المرأتان تقولانه .

نهض من الفراش خلسة ووقف قرب باب غرفته . ولكنه لم يستطع أن يسمع أكثر مما كان يسمعه من ذي قبل . وبدأ بحذر شديدٍ شديدٍ يرفع سقاطة الباب . وبعد فترة لابأس بها فتح الباب . ثم خطا خلسة خارجا إلى الممر . كانت ألواح خشب السنديان باردة تحت قدميه ، وبدأت تصدر صريرا على نحو غير طبيعي . وزحف برقة شديدةٍ شديدةٍ صاعدا درجة واحدة ، وبموازاة الحائط ، حتى وقف خارج غرفتها . وهناك أمسك أنفاسه وراح يصغي . وتناهى صوت بانفورد :

ـ كلا . ببساطة ليس في مقدوري أن أتحمّل ذلك . سأموت في غضون شهر . وهذا تماما ما يرمي إليه طبعا . إنّ تلك هي لعبته تماما ، أن يراني في المقبرة . كلا يا نيللي . إذا كان عليك أن تقومي بمثل هذا العمل ، كالزواج منه ، فلن يكون في مقدورك أبدا الإقامة هنا . ليس في مقدوري ، ليس في مقدوري العيش معه في المنزل نفسه . اوه ، اوه . إنّ رائحة ثيابه تُشعرني بأنني مريضة الى حد بعيد . إنّ وجهه الأحمر وببساطة يقلب أمعائي من الغثيان . لا أستطيع تناول طعامي عندما يكون عند المائدة . أية حمقاء كنت عندما سمحت له بالإقامة هنا قطّ . لا ينبغي على المرء أبدا أن يحاول القيام بعمل لطيف . إنّ ذلك يرتدُّ في وجهك دائما مثل البوميرانغ(*) .

قالت مارش :

ـ حسنا . إنّ أمامه يومين آخرين فحسب .

ـ أجل وشكرا للسماء . وعندما يذهب لن يدخل هذا المنزل ثانية أبدا . أشعر بالانزعاج الشديد وهو هنا . وأنا أعرف ، أعرف أنه يُحْصي فحسب ما يستطيع أن يحصل عليه منك . أعرف أن ذلك هو كل ما في الأمر . انه شخص تافه فقط ، لا يريد أن يعمل ، ويعتقد أنه سيعيش على حسابنا . ولكنه لن يعيش على حسابي . وإذا كنتِ حمقاء الى هذه الدرجة فإنّ ذلك شأنكِ وحدكِ عندئذ . لقد عرفته السيدة

(*) البوميرانغ : قطعة خشب مَلْوِيَّة أو معقوفة يتخذ منها سكان استراليا الأصليون قذيفة يرشقون بها هدفا ما ، ومن أصنافها نوع يرتدّ إلى الرامي . المترجم .

«بيرغيس» طوال الوقت الذي أمضاه هنا . ولم يكن في استطاعة الرجل العجوز قط أن يدفعه إلى القيام بأيّ عمل ثابت . كان دائما يتجول في الخارج وقد تنكّب البندقية في كل مناسبة ، تماما كما هو الآن . لا شيء سوى البندقية ! . .

إنني أكره ذلك فعلا . إنكِ لا تعرفين ماذا تفعلين يا نيللي ، لا تعرفين . لو تزوجتيه فسوف يخدعك تماما . سيرحل ويتركك بلا حول ولا قوة . أعرف أنه سيفعل ذلك ، إذا لم يستطع أن يأخذ مزرعة «بيلي فارم» مِنّا ، ولن يتسنّى له ذلك وأنا على قيد الحياة . ما دُمْتُ على قيد الحياة فلن يطأ هذا المكان بقدمه أبدا . أعرف ماذا سيكون ذلك . سرعان ما سيعتقد أنه سيدنا نحن الاثنتين مثلما يعتقد الآن أنه سيّدك أنت .

قالت نيللي :

ـ ولكنه ليس سيّدي .

ـ انه يعتقد أنه كذلك على أية حال . وذلك ما يريده : أن يأتي ويصبح سيدا هنا . أجل تصوّري ذلك ! . . هذا ما أعددنا المكان معا من أجله ، أليس كذلك ؟ أن يأتي عامل بغيض ، غلام أحمر الوجه مقيت فيتنمّرُ علينا ويصدر أوامره إلينا . اوه لقد ارتكبنا خطأ حقاً عندما سمحنا له بالإقامة هنا . لم يكن ينبغي قط أن نذلّ نفسينا . لقد كان لديَّ مثل هذا الصراع مع جميع الناس هنا كيلا أنزل إلى مستواهم . كلا ، لن يأتي الى هنا . وعندئذ سترين : إذا لم يستطع الحصول على المكان فسوف يفرّ إلى كندا ، أو أيّ مكان آخر ثانية ، وكأنه لم يعرفك قط . وهنا ستصبحين حُطاماً بشكل مطلق وضحية احتيال . وأعرف أنه لن يهدأ لي بال مرة أخرى أبدا .

قالت مارش :

ـ سنخبره أنه ليس في وسعه أن يأتي الى هنا . سنخبره بذلك .

ـ اوه . لا تقلقي . سأخبره بذلك وبأشياء أخرى أيضا قبل أن يذهب . لن يحصل على كل حريته ما دام لديَّ بقية من قوة للتكلم . اوه يا نيللي ، سيزدريكِ ، سيزدريكِ ، وهو كالحيوان الصغير الشنيع ، لو أفْسَحْتِ له المجال . لن أثق به بعد

الآن أكثر من ثقتي بقطة في أن لا تسرق . إنه ماكر ، إنه داهية ، نَزّاعٌ إلى السيطرة ، وهو أناني بكل ما في الكلمة من معنى وبارد كالجليد . كل ما يبتغيه هو أن يستفيد منك . وعندما لا تصبحين ذات فائدة له ، عندها أرثي لكِ .

قالت مارش :

ـ لا أعتقد أنه سيء الى تلك الدرجة .

ـ كلا لأنه يتملّقك . ولكنك ستكتشفين لو رأيتِ الكثير منه . اوه يا نيللي ، لا أستطيع أن أتحمل التفكير في ذلك .

ـ حسنا . لن يؤذيك ذلك يا حبيبتي «جيل» .

ـ لن يؤذيني ! . لن يؤذيني ! . لن أعرف أبدا لحظة واحدة من السكينة مرة ثانية ما حييتُ ولا لحظة من السعادة . كلا يا نيللي .

وبدأت بانفورد تنتحب بمرارة .

واستطاع الفتى في الخارج أن يسمع صوت نشيج المرأة المكتوم ، واستطاع أن يسمع صوت مارش الناعم العميق والحزين وهو يؤاسي المرأة المنتحبة برقة وحنان رائعين .

كانت عيناه مستديرتين وواسعتين جدا الى درجة أنه بدا يرى الليل بكامله ، وكانت أذناه على وشك القفز من رأسه . كان متجمدا على نحو متيبّس . زحف عائدا الى سريره ، ولكنه شعر وكأن قمة رأسه كانت تسقط . لم يستطع النوم . ولم يستطع البقاء ساكنا .

نهض وارتدى ثيابه بهدوء وزحف خارجا إلى مُنْبَسَطِ الدرج مرة أخرى . كانت المرأتان صامتتين . نزل برقة الى الطابق السفلي وخرج الى المطبخ .

ثم ارتدى معطفه وحذاءه وأخذ البندقية . لم يكن يفكر في الرحيل عن المزرعة . كلا ، بل أخذ البندقية فحسب . وَفَكَّ رتاج الباب بأرقّ ما يمكن وخرج إلى ليل كانون الأول الصقيعي . كان الهواء ساكنا ، والنجوم لامعة ، وبدت أشجار

الصنوبر تنتصب بخشونة في السماء وعلى نحو مسموع . ابتعد خلسة ناحية السياج وهو يبحث عن شيء ما ليطلق عليه النار . وتذكر في الوقت نفسه أنه لا ينبغي عليه أن يطلق النار ويرعب المرأتين . لذا فقد طاف خلسة حول طرف ستار نبات الوزّال ، وعبر أيكة نباتات الإيلكس(*) الطويلة الهرمة إلى جهة الغابة . وهناك التفّ حول السياج ، وهو يحدّق عبر الظلام بعينين متسعتين بدتا قادرتين على أن تصبحا قاتمتين ومليئتين بالنظر في الظلام ، كعينيْ قطة . كانت بومة تنعق حول شجرة بلوط ضخمة ببطء وعلى نحو حزين . وأخذ يخطو خلسة ببندقيته ، وهو يصغي ويصغي ويراقب .

وعندما وقف تحت أشجار البلوط الكائنة عند طرف الغابة سمع الكلاب تضج فجأة وعلى نحو مجفل من الكوخ المجاور في أعلى المضبة ، والكلاب التي استيقظت من المزارع هنا وهناك تنبح ردا عليها . وفجأة بدا له أن انكلترا صغيرة وضيقة ، وشعر أن المنظر الطبيعي الريفي قد تقلص حتى في الظلام ، وأنه كان ثمة الكثير جدا من الكلاب في الليل تصدر ضجيجا كحاجز من الصوت ، كشبكة الحواجز الانكليزية التي تغطي المنظر . شعر أن الثعلب لم يكن لديه فرصة . إذْ أنه لا بدَّ وأن يكون الثعلب هو الذي بدأ كل هذه الضوضاء . ولماذا لا يترقبه على أية حال ! . . سيأتي بدون شك وهو يستشم ما حوله . ومشى الفتى نازلا المضبة الى حيث كانت المزرعة ومبانيها وصنوبراتها القليلة تربض على نحو معتم . وجثم عند زاوية الحظيرة الطويلة في العتمة السوداء . كان يعلم أن الثعلب سيأتي . وبدا له أن هذا الثعلب سيكون آخر الثعالب في انكلترا هذه التي تنبح بصوت عال وكثيف ، والضيقة بالمنازل الصغيرة التي لا تحصى .

جلس وقتا طويلا وقد ثبتت عيناه بدون تحويل على المَدْخَلِ المفتوح ، حيث بدا أن ضوءا قليلا كان يسقط من النجوم أو من الأفق ، من يعلم ؟ كان يجلس على جذع

(*) الإيلكس : نبات ذو ورق صقيل شائك الأطراف وزهر صغير ضارب الى البياض . المترجم .

شجرة في ركن مظلم والبندقية على ركبتيه . وطقطقت أشجار الصنوبر . ومرة واحدة سقطت دجاجة من عجثمها في المخزن بقوقأة عالية الصوت وحادة واهتياج أجفله ، فوقف وهو يراقب بعينيه الإثنتين على اتساعهما ، معتقدا أنه لا بد وأن يكون جرذا . ولكنه أحس أنه لم يكن هنالك شيء . لذا جلس مرة أخرى والبندقية على ركبتيه وقد دَسَّ يديه تحت إبْطَيْهِ ليبقيهما دافئين ، وعيناه ثابتتان لا يَرِفُّ لهما جفن على اللسان المنبسط الباهت للمَدْخَلِ المفتوح . أحس أنه في ميسوره أن يشم رائحة الدجاج الحيّ الحارة المُغثية والقوية في الهواء البارد .

وعندئذ ـ لاح ظل . ظلّ يَنْسَلُّ إلى المدخل . واستجمع بصرَه كُلَّه في ومضة مُرَكِّزة ، وشاهد ظِلّ الثعلب ، الثعلب الزاحف على بطنه عبر البوابة . هناك كان يزحف على بطنه كالثعبان . وابتسم الفتى لنفسه ورفع البندقية إلى كتفه . كان يعرف تماما ماذا سيحدث . كان يعرف أنّ الثعلب سيذهب الى حيث كان باب الطيور مَكْسُوّاً بألواح خشبية ويستشمُّ هناك . كان يعرف أنه سيتربص هناك لمدة دقيقة ، متشمما الطيور في الداخل . وسيبدأ مرة أخرى بالطواف تحت حافة المخزن القديم مترقبا أن يدخل .

كان باب الطيور عند قمة منحدر طفيف . وناعما ، ناعما كظِلّ انسلّ الثعلب صاعدا هذا المنحدر ، وجثم وأنفه إزاء الألواح . وفي اللحظة نفسها دَوَّى صوتُ بندقية تردَّدَ صداه بين المباني القديمة ، وكأن الليل كله قد تهشم . ولكن الفتى كان يراقب بحدة . ورأى حتى بطن الثعلب الأبيض فيما كان الحيوان يتخبط في الموت . وهكذا تقدم نحو الأمام .

كان ثمة فوضى وضوضاء في كل مكان . كانت الطيور تتعارك باهتياج وتقوقىء ، وكانت البطات تصيح ، وكان المهْرُ يضرب الأرض بقدمه على نحو هائج . ولكن الثعلب كان على جنبه ينازع في هزاته الأخيرة . وانحنى الفتى فوقه وشم رائحته الثعلبية .

كان ثمة صوت نافذة تفتح في الطابق العُلويّ ثم صوت مارش تنادي :

ـ من هناك ؟ ؟

قال هنري :

ـ هذا أنا . لقد أطلقتُ النار على الثعلب .

ـ أوه ، يا إلهي ! . . لقد أرعبتنا إلى درجة الموت تقريبا .

ـ حقا ؟؟ إنني في غاية الأسف .

ـ ما الذي دفعك إلى النهوض ؟ ؟

ـ سمعتُه وهو يجوب الجوار .

ـ وهل أطلقتَ النار عليه ؟ ؟

ـ أجل ، إنه هنا .

ووقف الفتى في الساحة وهو يحمل الحيوان الدافىء الميت ، وقال :

ـ لا تستطيعين رؤيته ، أليس كذلك ؟ ؟ انتظري دقيقة .

وأخذ مشعله الكهربائي من جيبه وسلّطه على الحيوان الميت . كان يحمله من ذيله الكثيف . ورأت مارش ، وسط الظلام ، فقط كتلة الصوف المائلة إلى الاحمرار والبطن الأبيض والبياض الكائن تحت الذقن الحادة ، والمخالب الغريبة المتدلية . ولم تعرف ماذا تقول .

قال الفتى :

ـ إنه لشيء جميل . سيمنحك فراء فاتنا .

أجابت :

ـ لن تراني أرتدي فراء ثعلب .

قال :

ـ أوه .

وأطفأ المشعل . قالت :

ـ حسنا . ينبغي عليّ أن أعتقد أنك ستدخل الآن وتذهب إلى الفراش ثانية .

ـ من المحتمل أنني سأفعل ذلك . كم الساعة الآن؟؟

وصاحت مارش :

ـ كم الساعة يا جيل؟؟

كانت الواحدة إلاّ رُبْعاً .

ورأت مارش في تلك الليلة حلما آخر . حلمت أن بانفورد قد ماتت وأنها هي ، مارش ، كانت تنشج من أعماق قلبها . ثم كان عليها أن تضع بانفورد في تابوتها . وكان التابوت هو صندوق الحطب الخشن الذي كانت توضع فيه قطع الخشب المحتَطَبَة وتُحْفَظ في المطبخ ، قرب النار . كان هذا هو التابوت ، ولم يكن ثمة سواه ، وكانت مارش في كرب مبرِّح وارتباك مدوِّخ ، وهي تبحث عن شيء ما تحشو به الصندوق ، شيء ما تجعل الصندوق ناعما به ، شيء ما تغطي به الحبيبة المسكينة الميتة . إذْ لم يكن في استطاعتها أن تضعها في صندوق الخشب المريع بغلالة نومها البيضاء الرقيقة فحسب . لذا راحت تفتش وتفتش ، وتلتقط شيئا إثْرَ آخر ، ثم تلقيه جانبا في عذابِ إحباط الحلم . وفي غمرة يأسها في الحلم كان كل ما وجدت أنه سيجدي نفعا هو جلدُ ثعلب . كانت تعرف أن ذلك لم يكن صوابا ، أن هذا الجلد لم يكن ما ينبغي عليها أن تضعه . ولكنه كان كل ما استطاعت أن تجده . لذا طوت ذيل الثعلب ووضعت رأس حبيبتها جيل عليه ، وأحضرت جلد الثعلب ووضعته على أعلى الجسد ، بحيث بدا أنه يشكل غطاء مائلا الى الإحْمِرَار ونارِيّاً بأكمله ، وبكت ، وبكت ، واستيقظت لتجد الدموع وهي تجري بانحدار على وجهها .

وكان أول شيء قامت به هي وبانفورد ، كلتاهما ، في الصباح هو خروجهما لرؤية الثعلب .

كان هنري قد علقه من عقبيه في الحظيرة وقد تدلى ذيله المسكين الى الخلف . كان ثعلبا فاتنا شبيها بالكلب في ريعانه ، بغطاء شتائي سميك وجميل : لون أحمر ذهبي فاتن مشوب بلون رماديّ فيما هو ينتقل الى البطن ، والبطن أبيض بأكمله ، وذيل مليء وعظيم بلون أسود لطيف ورماديّ وبطرف أبيض صاف .

قالت بانفورد :

ـ يا للحيوان المسكين ! لو لم يكن لصا خسيسا كبيراً لشعرت بالأسف من أجله .

لم تقل مارش شيئا بل وقفت وقد امتدت قدمها جانبا وبرز أحد وركيها . كان وجهها شاحبا وعيناها سوداوين وواسعتين وهي تراقب الحيوان الميت الذي كان قد عُلِّقَ راسا على عقب . أبيضُ وناعم كالثلج بطنُه : أبيض وناعم كالثلج . مررت يدها عليه بلطف . كان ذيله الرائع المتلألىء بالسواد ممتلئاً واحتكاكياً رائعاً . وقد مررت يدها عليه أيضا ، وارتعشت . ومرة تَلْوَ أخرى راحت تمسك فراء ذلك الذيل الكثيف بكامله بين أصابعها ، وتمرر يدها ببطء نحو الأسفل . يا لَرَوْنَقِ ذيلٍ رائع ، حاد وكثيف! . . وكان ميتا! . . زمت شفتيها واستحالت عيناها سوداوين وخاليتين من أيِّ تعبير . ثم أمسكت الرأس بيدها .

كان هنري يمشي الهُوَيْنَى ، لذا مشت بانفورد مبتعدة بحدّةٍ نوعاً ما . ووقفت مارش هناك مشدوهة ، ورأس الثعلب في يدها . كانت تتعجب وتتعجب وتتعجب من خطمه الطويل الدقيق . وَذَكَّرَها لسبب ما بملعقة أو بمِبْسَط(*) . شعرت أنه لم يكن في وسعها أن تفهمه . كان الحيوان حيوانا غريبا بالنسبة لها ، لا يمكن إدراكه ، وخارج نطاقها . كان لديه شعرات شارب فضية رائعة كخيوط الجليد ، وأذنان منتصبتان وفي داخلهما شعر . ولكن يا لملعقة الأنف النحيلة الطويلة الطويلة! . . ويا للأسنان البيض المدهشة الموجودة الى الأسفل منها ! لقد كانت من أجل أن يدفعها الى الأمام ، ويعض بها عميقا ، عميقا ، عميقا داخل الفريسة الحية ، ليعض ويمزق الحياة .

قال هنري وهو يقف قريبا :

ـ إنه لشيء جميل ، أليس كذلك؟؟

(*) المِبْسط : ملعقة (أو سكين) الصيدلاني يسط بها المواد أو يمزجها . المترجم .

أجابت :

ـ اوه ، أجل . إنه ثعلب كبير رائع . إنني لأتساءل عن عدد الدجاجات التي يتحمل مسؤوليتها .

ـ عدد كبير تماماً . هل تعتقدين أنه الثعلب نفسه الذي شاهدْتِهِ في الصيف ؟؟

أجابت :

ـ عليَّ أن أعتقد أنه من المرجَّح جداً أنه هو .

راقبها ولكنه لم يستطع أن يستنتج منها شيئاً . كانت إلى حد ما خجولاً وعُذْرِيَّةَ الطباع جداً ، وإلى حد ما ضارية ، واقعية ، ورديئة الطباع جداً . وبدا له أن ما قالته مختلف تماماً عن نظرة عينيها الكبيرتين الغريبتين القاتمتين . سألته :

ـ هل ستسلخه ؟؟

ـ أجل ، عندما أُتِمُّ تناول فطوري وأحصل على لوح لأثبته عليه .

ـ يا إلهي ! . . يا للرائحة القوية التي يصدرها . أف . إنها ستتطلب من يَدَيْ المرء غسيلاً إلى حد ما . لا أعرف لماذا كنتُ في غاية البلاهة بحيث مَسَسْتُه .

ونظرت إلى يدها اليمنى التي كانت قد مرت منحدرة على بطنه وعلى طول ذيله ، وتلقت حتى مسحة دم بالغة الصِّغَر من مكان قاتم ما في فرائه . قال :

ـ هل رأيتِ كم تذعر الدجاجات عندما تشمّه ؟؟

ـ أجل ، أليس كذلك ؟؟

ـ عليك الانتباه لئلا تلتقطي بعض براغيثه .

أجابت دونما اكتراث :

ـ اوه ، البراغيث !

وفي وقت لاحق من النهار شاهدت جلد الثعلب مُسَطَّحاً ومثبتاً بالمسامير على لوح وكأنه قد صُلِب . وقد حباها ذلك شعوراً بالاضطراب .

كان الفتى غاضباً . راح يجول مغلق الفم وكأنه قد ابتلع جزءاً من ذقنه . ولكنه كان مهذباً ودمثاً في تصرفه . لم يقل أيَّ شيء عن نيته . وترك مارش بمفردها .

جلسوا ذلك المساء في غرفة الطعام . لم تكن بانفورد لتتحمله في غرفة الجلوس بعد اليوم . كان ثمة زند خشب كبير جداً في النار . وكان كل منهم منهمكاً . كان على بانفورد أن تكتب رسائل ، وكانت مارش تخيط ثوباً ، وهو يصلح أداة ميكانيكية ما .

كانت بانفورد تتوقف عن كتابة الرسائل من وقت لآخر لتنظر حولها وتريح عينيها . وكان الفتى قد أخفض رأسه واختفى وجهه فوق عمله . قالت بانفورد :

ـ لِنَز . بأيِّ قطار تسافر يا هنري ؟

رفع نظره مباشرة إليها وقال :

ـ قطار الصباح . في الصباح .

ـ قطار الثامنة وعشرة دقائق أم الحادية عشرة والثلث ؟؟

قال :

ـ قطار الحادية عشرة والثلث على ما أعتقد .

قالت بانفورد :

ـ أيْ بعد غد .

ـ أجل ، بعد غد .

غمغمت بانفورد قائلة : «يمْمْ !» وعادت إلى كتابة الرسائل . ولكنها وبينما كانت تلعق مغلف رسالتها سألته :

ـ وما هي الخطط التي قمتَ بها من أجل المستقبل إذا كان يمكنني أن أسأل ؟؟

قال ووجهه براق جداً وغاضب :

ـ خطط ؟؟؟

ـ أقصد بخصوصك وخصوص نيللي إذا كنتما مستمرين في هذه القضية . متى تتوقع أن يحدث الزفاف ؟؟

كانت تتحدث بنبرة ساخرة . أجاب :

ـ أوه ، الزفاف ! لا أعرف .

قالت بانفورد :

ـ ألا تعرف أيَّ شيء ؟؟ هل سترحل يوم الجمعة وتترك الأمور دون أن تزيد استقراراً عمّا هي عليه الآن ؟؟

ـ حسناً ولماذا لا ينبغي عليَّ ذلك ؟؟ نستطيع دائماً أن نكتب رسائل .

ـ أجل . طبعاً تستطيعان . ولكنني أردت أن أعرف من أجل هذا المكان . إذا كانت نيللي سوف تتزوج فجأة ، فسيتحتم عليَّ أنْ أدرسَ الاحتمالات من أجل شريكة جديدة .

قال :

ـ ألا تستطيع المكوث هنا إذا تزوجتْ ؟

كان يعرف تماماً ماذا سيحدث . قالت بانفورد :

ـ أوه ، ليس هذا مكان اثنين متزوجين . ليس هنالك ما يكفي من العمل لإبقاء الإنسان حيّاً ، من ناحية ، وليس ثمة نقود ليكسبها المرء . إنه لمن غير المُجْدي وإلى حد بعيد أنْ تفكر بالبقاء هنا لو تزوجتَ . مطلقاً ! . .

قال :

ـ أجل ولكنني لم أكن أفكر بالبقاء هنا .

ـ حسناً . هذا ما أريد أن أعرفه . وماذا عن نيللي إذن ؟؟ إلى متى ستبقى هنا معي في تلك الحالة ؟؟

ونظر الخصمان كل إلى الآخر . أجاب :

ـ ذلك ما لا أستطيع قوله .

فصرخت بفظاظة :

ـ أوه . تابع . يجب أن يكون لديك فكرة عما ستفعل إذا طلبتْ من امرأة أن تتزوجك . إلاّ إذا كان الأمر برمّته خدعة .

ـ ولماذا ستكون خدعة ؟؟ إنني عائد إلى كندا .

ـ وستأخذها معك ؟؟

ـ أجل بالتأكيد .

قالت بانفورد :

ـ هل تسمعين ذلك يا نيللي ؟؟

ورفعت مارش ، التي كان رأسها مُنكبّاً على خياطتها ، بصرها الآن وقد ران على وجهها تورد قرمزيٌّ حاد ، وارتسمت في عينيها وعلى فمها المَلْويِّ ضحكةٌ تهكمية غريبة ، وقالت :

ـ إنها المرة الأولى التي أسمع فيها أنني ذاهبة إلى كندا .

قال الفتى :

ـ حسناً . يتعيّنُ عليك أن تسمعي ذلك للمرة الأولى ، أليس كذلك ؟؟

قالت دونما اكتراث :

ـ أجل . أعتقد أنه يتعين علي ذلك .

وعادت إلى خياطتها . سألت بانفورد :

ـ وأنتِ مستعدة تماماً للذهاب إلى كندا ، أليس كذلك ؟؟ هل أنت مستعدة يا نيللي ؟؟

ورفعت مارش بصرها مرة أخرى . وتركت كتفيها يتراخيان ، وتركت يدها التي كانت تمسك بالإبرة تتدلى طليقة في حضنها ، وقالت :

ـ إنَّ ذلك يعتمد على الطريقة التي سأذهب بها . لا أعتقد أنني أريد أن اذهب محشورة في المكان المخصص للمسافرين بالتعرفة الرخيصة كزوجة جندي . أخشى أنني لست معتادة على تلك الطريقة .

راح الفتى يراقبها بعينين براقتين . وسألها :

ـ وهل تفضلين أن تبقي هنا بينما أسافر أولاً ؟؟

أجابت :

ـ أفضّل إذا كان ذلك هو الخيار الوحيد .

قالت بانفورد :

ـ إنَّ ذلك هو أكثر الأشياء حكمة وتعقلاً . لا تجعلي من ذلك أيَّ ارتباط

ثابت . واتركي نفسك حرة في أن تذهبي أو لا بعد أن يعود ويجد لك مكاناً يا نيللي . أيُّ شيء آخر هو الجنون ، الجنون .

قال الفتى :

ـ الا تعتقدين أنه ينبغي علينا الزواج قبل أن أذهب ، وعندئذ نذهب معاً ، أو بشكل مستقل ، حسب الطريقة التي تجري بها الأمور ؟؟

صرخت بانفورد قائلة :

ـ أعتقد أنها فكرة مريعة .

ولكن الفتى كان يراقب مارش . وسألها :

ـ ماذا تعتقدين ؟؟

فتركت عينيها تهيمان بغموض في الفضاء وقالت :

ـ حسناً . لا اعرف . سيكون عليَّ أن أفكر في الأمر .

فسألها على نحو وثيق الصلة بالموضوع :

ـ لماذا ؟؟

فكررت سؤاله بطريقة ساخرة ونظرت إليه ضاحكة ، على الرغم من أن وجهها كان قد أصبح قرمزياً مرة أخرى ، وقالت :

ـ لماذا ؟؟ عليَّ أن أعتقد أن ثمة العديد من الأسباب .

فراقبها في صمت . كان يبدو أنها قد أفلتت منه .

كانت قد دخلت في تحالف مع بانفورد ضده . ومرة أخرى كانت تلك النظرة الساخرة الغريبة في متناولها . إنها لتسخر برزانة من كل شيء قاله أو قدَّمَتْهُ الحياة . قال :

ـ طبعاً أنا لا أريد أن أضغط عليك لتقومي بأيِّ عمل لا ترغبين القيام به .

صرخت بانفورد بسخط :

ـ يتحتم عليَّ ألاَّ أعتقد ذلك في الواقع .

عند وقت النوم قالت بانفورد لمارش بكآبة :

ـ هل تتكرمين بإحضار قربة الماء الساخن الخاصة بي للأعلى ومن أجلي يا نيللي ؟؟

قالت مارش بذلك النوع من العفوية التلقائية التي كانت غالباً ما تبديه إزاء عزيزتها الأثيرة ولكن المتقلّبة جيل :

ـ أجل سأقوم بذلك .

وصعدت المرأتان إلى الطابق العُلْوِيّ . وبعد فترة نادت مارش من أعلى الدرجات :

ـ تصبح على خير يا هنري . لن أنزل . ستُولي المصباح والنار عنايتك ، أليس كذلك ؟؟

في اليوم التالي راح هنري يجوس المكان وقد اكفهرَّ جبينُه بالغيوم وانغلق وجهه الفَتِيُّ اليافع بإحكام . كان يتفكّر طوال الوقت . كان قد أراد أن تتزوجه مارش وتعود معه إلى كندا . وكان متأكداً أنها ستفعل ذلك . لم يكن يعرف لماذا أرادها . لكنه كان فعلاً يريدها . كان قد عقد العزم عليها . وقد زُلْزِلَ كيانُه بغضب الشباب لكونه قد خُذِلَ . أَنْ يُخْذَلَ ! . . أَنْ يُخْذَلَ ! . . لقد جعله ذلك يتميّز غيظاً من الداخل وإلى حد كبير ، إلى درجة أنه لم يكن يعرف ماذا يفعل مع نفسه . ولكنه أبقى نفسه قيد السيطرة . إذْ حتى الآن يمكن للأشياء أن تنتهي على نحو مختلف . قد تتخذ موقفاً جديداً منه . طبعاً قد تفعل . وكان من حقها أن تفعل ذلك .

وتوترت الأمور مرة أخرى عند المساء كان هو وبانفورد قد تجنب كل منهما الآخر طوال النهار . كانت بانفورد في الحقيقة قد ذهبت إلى البلدة الصغيرة في قطار الحادية عشرة والثلث وكان ذلك اليوم هو يوم السوق . ووصلت عائدة في الرابعة وخمس وعشرين دقيقة . وفي لحظة هبوط الليل ، شاهد هنري طيفها الصغير في معطف أزرق غامق اللون وقلنسوة صوفية زرقاء غامقة اللون وهي تعبر المرج الأول من ناحية المحطة . وقف تحت إحدى أشجار الإجاص البرّيّ وقد ترامت حول قدميه أوراق الأشجار القديمة الميتة . وراح يراقب الطيف الأزرق الصغير وهو يتقدم بمثابرة

على المرج الخشن الذي جعله الشتاء مُهْمَلاً . كانت ذراعاها مليئتين بالطرود ، وكانت تتقدم ببطء . لقد كانت ضئيلة القوام ولكن بتلك الثقة الشيطانية الصغيرة التي لَشَدَّ ما كان يمقتها فيها . وقف مخفياً عن الأنظار تحت شجرة الإجاص وهو يراقبها في كل خطوة . ولو كان للنظرات أن تؤثر عليها لشعرت بجذع من الحديد على كل كاحل من كاحليها وهي تشق طريقها إلى الأمام . وكان يقول بصوت خفيض عبر المسافة :

ـ انتِ شيء صغير مقيت أنتِ . أنتِ شيء صغير مقيت . آمل أن تدفعي ثمن كل الأذى الذي سبَّبتِهِ لي بلا سبب . آمل أن تدفعي ثمن ذلك أيتها المقيتة الصغيرة . آمل أنه سيترتب عليك دفع ثمن ذلك . ستدفعين الثمن إذا كانت الأمنيات هي أيّ شيء . إنكِ لمخلوقة صغيرة مقيتة . تلك هي أنت .

كانت تجهد في صعود المنحدر ببطء . ولكنْ لو انَّ قدمها راحت تزِلُّ في كل خطوة إلى جهنم التي لا قرار لها ، لما ذهَبَ ليساعدها في حمل الرزم . أهَا ! . . ها قد ذهبت مارش وهي تخطو خطواتها الأرضية المدبدة بلفافات ساقيها وسترتها القصيرة ! . ها هي تخطو نازلة الهضبة بسرعة كبيرة ، بل حتى تركض بضع خطوات بين حين وآخر ، في عنايتها ورغبتها المفرطتين في أن تأتي لإنقاذ بانفورد الصغيرة . وراح الفتى يراقبها والغيظ يعتمل في قلبه . أُنظُرْ إليها وهي تقفز فوق قناة للريِّ وتركض ، تركض وكأن منزلاً يحترق ، فقط لتصل إلى ذلك الجسم الصغير القاتم الذي يزحف هناك في الأسفل ! . . وهكذا وقفت بانفورد ساكنة فحسب وانتظرت . وَخَطَتْ مارش إليها وأخذت جميع الرزم باستثناء باقة من الأقحوان الأصفر . لقد ظلت بانفورد تحملها ـ اقحوان أصفر ! . .

قال بصوت خفيض في هواء الغسق :

ـ أجل : إنكِ تبدين على ما يرام ، أليس كذلك ؟؟ إنكِ تبدين على ما يرام [illegible] تتسكعين هناك بباقة من الزهور فعلاً . سأجعلك تتناولينها مع شايكِ لو تشبثتِ بها [illegible]كام شديد هكذا . وسأعطيك إياها من أجل الفطور مرة أخرى ، سأفعل ذلك . [illegible]عطيك ازهاراً . لاشيء سوى الأزهار .

وراح يراقب تقدم المراتين . كان في مقدوره أن يسمع صوتيهما : مارش صريحة دائماً ومُوَبَّخَةً بالأحرى في حنانها ، وبانفورد تغمغم بغموض إلى حد ما . كانتا ، وعلى نحو جَلِيٍّ ، صديقتين حقيقيتين . ولم يستطع أن يسمع ما كانتا تقولانه حتى وصلتا إلى سياج المرج المحيط بالبيت ، والذي ينبغي عليهما أن تتسلقاه . ثم شاهد مارش وهي تتسلق القضبان بطريقة رجولية وكل رزمها في ذراعيها ، وسمع في الهواء الساكن صوت بانفورد النكد قائلاً :

ـ لماذا لا تتركيني أساعدك في حمل الرزم ؟؟

كان ثمة حركة حزينة غريبة في صوتها . ثم تناهى صوت مارش القويُّ والطائش قائلاً :

ـ اوه . أستطيع أن أتدبر الأمر . لا تقلقي بشأني . إنَّ كل ما عليك أن تقومي به هو أن تعبري .

قالت بانفورد بنكد :

ـ أجل . إنّ ذلك كله حسن جداً . تقولين : «لا تقلقي بشأني» ، ثم وطوال الوقت تشعرين بالظلم لأن أحداً ما لا يفكر بك .

قالت مارش :

ـ متى أشعر بالظلم ؟؟

ـ دائماً . دائماً تشعرين بالظلم . إنكِ تشعرين بالظلم الآن لأنني لا أسمح لذلك الفتى أن يأتي ويعيش في المزرعة .

قالت مارش :

ـ لا أشعر بالظلم على الإطلاق .

ـ أعرف أنك تشعرين بالظلم . عندما سيذهب ستعبسين . أعرف أنك ستفعلين ذلك .

قالت مارش :

ـ حقاً ؟؟ سنرى .

ـ أجل . سنرى ، لسوء الحظ . لا أستطيع أن أفكر كيف في مقدورك أن

تجعلي نفسك رخيصة جداً . لا أستطيع أن أتخيل كيف في مقدورك أن تُنْقِصي من قَدْرِ نفسِكِ هكذا .

قالت مارش :

ـ لم أُنْقِصْ من قَدْرِ نفسي .

ـ لا أعرف ماذا تسمينها إذن . أن تَدعِي فتى مثل ذلك يأتي وَقحاً وصفيقاً جداً ويستغفلكِ . لا أعرف ما هي فكرتك عن نفسك . وكم من الاحترام تعتقدين أنه سَيُكِنُّ لك بعد ذلك ؟؟ أقول لك : لا أتمنى أن أحل محلك في حذائك لو تزوجتيه .

قالت مارش بتهكم أخفق إلى حد ما في إحداث التأثير المطلوب :

ـ طبعاً لا تتمنين . فجزمتي أكبر من قدميك بمقدار جيد وليست بنصف الأناقة المطلوبة .

ـ كنت أعتقد أنك تتحلّين باعتداد كبير بالنفس . حقاً كنت أعتقد ذلك . على المرأة أن تشمخ بنفسها لا سيما مع فتى كذلك الفتى . ولماذا ؟ لأنه صفيق . حتى الطريقة التي فرض نفسه فيها علينا في البداية .

قالت مارش :

ـ نحن طلبنا منه أن يبقى .

ـ لم نطلب منه إلاّ بعد أن كاد يرغمنا تقريباً على ذلك . ثم إنّه مزهو بنفسه جداً وواثق من نفسه . وأقول لك : إنه يُخْرِجُني عن طَوْري . وأنا ببساطة لا أستطيع أن أتخيل كيف يمكنك أن تَدَعِيهِ يعاملك على هذا النحو الرخيص جداً .

قالت مارش :

ـ إنني لا أَدَعُهُ يعاملني على نحو رخيص . لا تُقْلِقِي نفسَكِ . لن يعاملني أحد على نحو رخيص . وحتى أنتِ أيضاً .

كان لديها خَدٌّ رقيقٌ ونارٌ مؤكّدةٌ في صوتها .

قالت بانفورد بمرارة :

ـ من المؤكد أن الأمر سيرتدُّ عليَّ . هذه هي نهايته دائماً . وإنني لأعتقد أنك تفعلين ذلك فقط لإغاظتي .

كانتا الآن تصعدان المنحدر المُعشب في صمت وتجتازان أعلاه عبر شجيرات الوزّال . وعند الطرف الآخر من السياج كان الفتى ينتبعهما في العتمة على مسافة صغيرة بعض الشيء . وبين الفينة والفينة ومن خلال سياج الزعرور البريّ الضخم القديم ، كان يرى الشبحين المعتمين ، بازغين بين الأشجار ، وهما يزحفان إلى أعلى الهضبة . وعندما أتى إلى قمة المنحدر شاهد المسكن مظلماً في الشفق ، وشجرة كُمَّثرى ضخمة قديمة مائلة عن الجملون(*) القديم وضوءاً أصفر واهناً يومض في نوافذ المطبخ الجانبية الصغيرة . سمع صَلْصَلَةَ المزلاج وشاهد باب المطبخ ينفتح على النور عندما دخلت المرأتان المنزل . وهكذا أصبحتا في البيت . وهكذا ا . . ـ هذا ما كانتا تعتقدان عنه . كان من صُلْبِ طبيعتهِ إلى حدٍّ ما أن يكون مُتَنَصِّتاً ، لذا لم يكن مُنْدَهِشاً على الإطلاق من أيِّ شيء سمعه . كانت الأشياء التي كان الناس يقولونها عنه تخطئه شخصياً دائماً . كان فقط مُنْدهِشاً إلى حد ما من طريقة المرأتين في تعاملهما كلٌّ مع الأخرى . وقد مقت بانفورد مقتاً حاداً ، وشعر أنه مشدود إلى مارش مرة أخرى . شعر مرة أخرى أنه مشدود إليها على نحو لا يُقاوَم . شعر أنه كان هنالك رباط سِرِّيٌّ ، خيط سِرِّيٌّ بينه وبينها ، شيء مقصور عليهما إلى حد كبير يمنع دخول أيِّ شخص آخر ، ويجعله ويجعلها يمتلكان كلٌّ الآخرَ في الخفاء .

وراح يأمل مرة أخرى لو أنها تحصل عليه . راح يأمل وقد ثار دَمُهُ صاعداً عروقه فجأة لو أنها توافق على الزواج منه وبسرعة تامة : في عيد الميلاد على أرجح احتمال . ولم يكن عيد الميلاد بعيداً . كان يريد ـ مهما حدث شيء آخر ـ أن يختطفها في زواج واكتمال سريعين معه . ثم ومن أجل المستقبل يستطيعان أن يتدبرا الأمر فيما بعد . لكنه كان يأمل أن يحدث الأمر كما كان يريده . كان يأمل لو تمكث معه فترة قصيرة هذه الليلة ، بعد أن تكون بانفورد قد صعدت إلى الطابق العُلويّ . كان يأمل لو يستطيع لمس وجنتها الناعمة القشدية ووجهها الغريب المذعور . كان يأمل لو

(*) الجملون : الجزء الأعلى المثلث الزوايا من جدار مكتنف بسطحين متحدرين . المترجم .

يستطيع النظر في عينيها المتسعتين المذعورتين القاتمتين عن كثب تماماً . كان يأمل لو يمكنه حتى أن يضع يده على صدرها ويتحسس نهديها الناعمين تحت سترتها . ونبض قلبه على نحو عميق وقويٍّ عندما فكر بذلك . لَشَدَّ ما كان يرغب أن يفعل ذلك . كان يريد أن يتأكد من نهديها النسائيين الناعمين تحت سترتها . كانت دائماً تُبْقي أزرار معطفها البنّي متراصّة حتى حنجرتها . وكان يبدو بالنسبة له سرّاً ما محفوفاً بالمخاطر أنّ نهديها النسائيين الناعمين يجب تزريرُهُما إلى الأعلى في ذلك اللباس . كان يبدو له فضلاً عن ذلك أنهما كانا أكثر نعومة وطراوة وفتنة وتحبباً ، وهما حبيسان في تلك السترة ، من نَهْدَي بانفورد تحت بلوزاتها الناعمة وفساتينها الحريرية الشفافة . إن بانفورد تملك نهدين حديديين صغيرين ، قال لنفسه . وعلى الرغم من كل هشاشتها ونكدها وضعفها فإنّ لديها نهدين حديديين صغيرين جداً . ولكن مارش ، تحت سترتها العُمّالية الذُّكَرِيّة الفجة المغلقة بإحكام تملك نهدين بيضاوين ناعمين ، بيضاوين ومخفيين . هذا ما أخبره لنفسه واشتعل دَمُه .

عندما دخل إلى المنزل لتناول الشاي تلقى مفاجأة . ظهر عند الباب الداخلي ووجهه متورد جداً ومفعم بالحيوية ، وعيناه الزرقاوان تشعان ، وقد طأطأ رأسه إلى الأمام وهو يدخل بطريقته المعهودة ، متردداً في المدخل ليراقب داخل الغرفة بتحدة واحتراس قبل دخوله . كان يرتدي صدرية بأكمام طويلة . وكان وجهه يبدو وعلى نحو استثنائي كقطعة من العراء وهي تدخل المنزل : كما تفعل ثمار العُلّيق .

وفي الثانية التي توقف فيها عند المدخل شهد المرأتين تجلسان إلى منضدة ، عند طرفين متقابلين ، شاهدهما بحدة . ولذهوله كانت مارش ترتدي فستاناً من قماش الكريب(*) الحريريّ الأخضر الباهت . وفُغِرَ فُوهُ دهشة . ولو أنه كان قد نَبَتَ لها شاربٌ فجأة لما استطاع أن يكون أكثر دهشة . قال :

ـ عجباً ، هل ترتدين فستاناً إذن ؟؟

(*) الكريب : قماش رقيق جعد . المترجم .

فرفعت نظرها وقد توردت بلون وردة عميق وَلَوَتْ فمها بابتسامة قائلة :
ـ طبعاً ارتدي فستاناً . أيّ شيء آخر تتوقع مني أن ارتدي سوى فستان ؟؟
قال :
ـ لباس فتاة الأرض طبعاً .
فصاحت لا مبالية :
ـ اوه . إنّ ذلك فقط من أجل العمل القذر الموحل هنا وهناك .
قال :
ـ أليس هو ثوبك المُمَيِّز إذن ؟؟
قالت :
ـ كلا . ليس في داخل المنزل .

ولكنها كانت تحمر خجلاً طوال الوقت وهي تصب له الشاي . جلس في كرسيّه عند المائدة وهو عاجز عن رفع عينيه عنها . كان فستانها قميصاً تحتياً بسيطاً تماماً من قماش الكريب الأخضر المائل إلى الزرقة بخطّ من الذهب يَنْدَرِزُ نحو الأعلى وحول الأكمام التي وصلت إلى المرفقين .

لقد فُصِّل بشكل بسيط تماماً ومستدير عند الأعلى ، وأظهر حنجرتها البيضاء الناعمة . كان يعلم أن ذراعيها قويتان ومكتنزتان بالعضلات إذْ غالباً ما كان يراها وقد رفعت أكمامها للأعلى . ولكنه راح يقلّب النظر فيها صعوداً ونزولاً ، صعوداً ونزولاً .

ولم تنبس بانفورد ، عند الطرف الآخر من المائدة ، بكلمة ، بل انهمكت بالسردين في صحنها . كان قد نسي وجودها . كان فقط وببساطة يحدق الى مارش فيما كان يتناول خبزه والسمن بِلُقَمٍ ضخمة ناسيا حتى شايه ، وغمغم عبر لُقَمِهِ :
ـ حسنا . لم أعرف قط أيّ شيء يشكل فارقا كهذا .
فصاحت مارش وهي ماتزال تزداد توردا :
ـ أوه يا إلهي . قد أكون نساسا قرمزيا .

ونهضت بسرعة على أقدامها وأخذت إبريق الشاي الى النار ، إلى الغلاّية . وفيما كانت تنحني على الموقد وقد أحاط بها ثوبها الأخضر ، راح الفتى يحدق بعينين أكثر اتساعا من أيّ وقت مضى . وبدا شكلها النسائي عبر قماش الكريب ناعما وأنثويا . وعندما وقفت ومشت شاهد ساقيها تتحركان بنعومة داخل تنورتها القصيرة على نحو غَصْرِيّ . كانت ترتدي جوارب حريريةً سُوداً ، وحذاء صغيرا مفتوحا بإبزيمات ذهبية صغيرة .

كلا . لقد كانت كائنا آخر . كانت شيئا مختلفا تماما ، ولأنه كان يراها دائما في بنطالها القصير ذي القماش السميك ، العريض عند الوركين والمُزَرَّر عند الركبة ، قويا كالدرج ، وفي لفافات ساقيها البنية وجزمتها السميكة ، لم يخطر له قط أنها كانت تملك ساقيّ وقدميّ امرأة . لقد فاجأه ذلك الآن . كان لديها ساقان ناعمتان بتنورة ، وكانت سهلة المنال .

واحمرَّ حتى جذور شعره ، ودفع أنفه في فنجان شايه وشرب شايه بضجة قليلة جعلت بانفورد ببساطة تتلوّى من الضيق : وشعر على نحو غريب وعلى حين غرة أنه رجل وأنه لم يعد فتى . شعر أنه رجل ، بكل ما للرجل من وطأة المسؤولية الرزينة . واستبدت بروحه رزانةٌ وهدوء غريبان . شعر أنه رجل هادىء ، وران عليه شيء من ثِقَلِ قَدَرِ الذُّكُور . كانت ناعمة وسهلة المنال في ثوبها . وعادت الفكرة إلى موطنها فيه كمسؤولية أبدية .

صاحت بانفورد بنكد :

ـ أوه . كرمى للسماء ، ليقل أحد ما شيئا ما . إنّ في إمكان هذه أن تكون جنازة .

نظر الفتى إليها ولم يكن في مقدورها أن تتحمل وجهه .

قالت مارش بابتسامة ملتوية :

ـ جنازة ! . . عجبا ، إنّ ذلك يبدّد حلمي .

وفجأة فكرت في بانفورد وهي في صندوق الخشب الذي اتُّخِذَ تابوتا . قالت بانفورد على نحو تهكمي :

ـ ماذا ! . . هل كنت تحلمين بزفاف ؟؟

قالت مارش :

ـ لابدَّ وأنه كذلك .

سأل الفتى :

ـ زفاف مَنْ ؟؟

قالت مارش :

ـ لا أستطيع أن أتذكر .

كانت خجلى وخرقاء الى حد ما ذلك المساء ، على الرغم من حقيقة أن ارتداءها ثوبا قد جعل قدرتها على الاحتمال ألطف وأخفّ مما تكون عليه وهي في زيها . وكانت تشعر أنها غير مُقَشَّرة ومكشوفة نوعا ما . وكانت تشعر أنها تقريبا غير محتشمة .

وتحدثوا بشكل عابر عن رحيل هنري في الصباح التالي ، وقاموا بالترتيبات العادية . ولكن لم يتحدث أيٌّ منهم عن الموضوع الذي كان في أذهانهم . كانوا هادئين نوعا ما وعلى وُدٍّ هذا المساء ، ولم يكن لدى بانفورد عمليا ما تقوله . ولكنها في قرارة نفسها بدت ساكنة ، ربما بلطف .

وفي الساعة التاسعة أحضرت مارش الصينية مع الشاي الأبديّ وقليلا من اللحم البارد الذي كانت بانفورد قد أفلحت في الحصول عليه بمشقة . كان العشاء الأخير ، لذا لم تُرِدْ بانفورد أن تكون سيئة الطبع . شعرت بالأسف قليلا من أجل الفتى ، وأحست أنها يجب أن تكون لطيفة قدر استطاعتها .

كان يريدها أن تذهب إلى الفراش . كانت عادة أول من يأوي الى الفراش . ولكنها جلست في كرسيها تحت المصباح ، وهي تتصفح كتابها بين الفينة والفينة

وتحدق الى النار . وعَمَّ الغرفةَ صمتٌ عميق تَبَدَّدَ بسؤال مارش في نبرة خفيضة الى حد ما :

ـ كم الساعة يا جيل ؟؟

قالت بانفورد وهي تنظر الى معصمها :

ـ العاشرة وخمس دقائق .

ثم لم يبدر صوت ، رفع الفتى بصره عن الكتاب الذي كان يمسكه بين ركبتيه . كانت ترتسم على وجهه ، العريض نوعا ما والذي اتخذ هيئة القط ، نظرته العنيدة وكانت عيناه يقظتين . قالت مارش أخيرا :

ـ ماذا عن الفِراش ؟؟

قالت بانفورد :

ـ إنني جاهزة عندما تكونين جاهزة .

قالت مارش :

ـ اوه . حسن جدا . سأملأ قربة مائك .

وصدقت بوعدها . وعندما أصبحت قربة الماء الساخن جاهزة أشعلت شمعة وصعدت بها الى الطابق العُلويّ . وبقيت بانفورد في كرسيها وهي ترهف السمع . ونزلت مارش الى الطابق السفلي مرة أخرى . قالت :

ـ ها أنتذي اذن . هل ستصعدين ؟؟

قالت بانفورد :

ـ أجل . في غضون دقيقة .

ولكن الدقيقة انقضت وهي جالسة في كرسيها تحت المصباح .

ونهض الآن هنري ـ الذي كانت عيناه تشعان كَعَيْنَيْ قِطٍّ فيما كان يراقب من أسفل حاجبيه وقد بدا وجهه أكثر اتساعا ، أكثر اكتنازا باللحم وشبيها بالقط بعناد غير مقبول ـ نهض على قدميه ليجرّبَ رميته . قال :

ـ أعتقد أنني سأذهب وأنظر إنْ كان في استطاعتي أنْ أرى أنثى الثعلب . ربما كانت تدب في الجوار . ألن تأتي أيضاً لمدة دقيقة يا نيللي وتَرَيْ إذا رأينا أيَّ شيء ؟؟

فصاحت مارش وهي ترفع بصرها بوجهها المجفل المتعجب :

ـ أنا ! . .

قال :

ـ أجل . هَلُمّي .

وإنه لما يثير الدهشة كم ناعماً ودافئاً وملاطفاً كان في مقدور صوته أن يصبح ، وكم قريبا . لقد جعل سماعه بالذات دَمَ بانفورد يغلي . قال وهو يخفض بصره إلى وجهها المتردد المرفوع :

ـ هَلُمّي دقيقة .

ونهضت على قدميها وكأن وجهه المتورد الشاب ـ الذي كان يخفض بصره إليها ـ كان يسحبها .

صاحت بانفورد :

ـ ينبغي أن أعتقد أنكِ لن تخرجي أبدا في هذا الوقت من الليل يانيللي !

قال الفتى وهو ينظر إليها ، ويتحدث بعواء غريب وحاد في صوته :

ـ أجل . لمدة دقيقة فحسب .

ونظرت مارش من واحد الى الآخر غامضة وكأنها مرتبكة . ونهضت بانفورد على قدميها من أجل المعركة .

ـ عجبا ! إنه لشيء سخيف . الطقس قارس . ستلاقين حتفك بذلك الثوب الرقيق وهذين الخفين . لن تفعلي أيَّ شيء من هذا القبيل .

وساد الصمت لحظة . واحـدودبتْ بانفورد كَدِيكٍ مصارع صغير ، وهي تواجه مارش والفتى . أجاب :

ـ أوه . لا أعتقد أنكِ في حاجةٍ لإقلاقِ نفسكِ . إنَّ لحظةً تحت النجوم لن

تلحق أيّ ضرر بأيّ شخص . سأحضرُ البطانية من الصوفا في غرفة الطعام . ستأتين يا نيللي .

كان في صوته الكثير جدا من الغضب والازدراء والحنق فيما كان يتحدث إلى بانفورد : والكثير من الحنان والثقة الفخورة فيما كان يتحدث إلى مارش ، إلى درجة أن الأخيرة أجابت :

ـ أجل . أنا قادمة .

واستدارت معه نحو الباب .

وانفجرت بانفورد ، التي كانت تقف هناك في منتصف الغرفة ، فجأة في عويل طويل ونوبة من النشيج . غطت وجهها بيديها المسكينتين الرقيقتين ، واهتز كتفاها النحيلان في نوبة من البكاء . ونظرت مارش عند الباب الى الخلف . وصاحت في نبرة مسعورة كشخص يستيقظ لِتَوِّه :

ـ جيل !. .

وبدا أنها ستثب نحو حبيبتها .

ولكن الفتى كان يمسك ذراع مارش في قبضته ، ولم تستطع التحرك . لَمْ تعرف لِمَ لَمْ تستطع أنْ تتحرك . كان ذلك كما لو أنه في حلم عندما يتوتر القلب ولا يستطيع الجسد أن يحرك ساكنا .

قال الفتى بنعومة :

ـ لا بأس . دَعِيها تبكِ . دَعِيها تبك . سيكون عليها أن تبكي عاجلا أم آجلا . وستريح الدموع مشاعرها . ستفيدها الدموع .

وهكذا سحب مارش ببطء عبر المدخل . ولكن نظرتها الأخيرة كانت إلى الخلف ، إلى الشبح الصغير المسكين الذي وقف في منتصف الغرفة بوجه مغطى وكتفين نحيلين يهزهما بكاء مرير . وفي غرفة الطعام التقط البطانية وقال :

ـ دثري نفسك بهذه .

فأطاعت . ووصلا الى باب المطبخ وهو يمسكها من ذراعها بنعومة وثبات على الرغم من أنها لم تَدرِ بذلك . وعندما رأت الليل في الخارج أجفلت للوراء وقالت :

ـ يجب أن أعود إلى جيل . يجب !.. أوه ، أجل يجب .

وبدت نبرتها نهائية . وأطلق الفتى سراحها فاستدارت إلى داخل المنزل . ولكنه أمسك بها ثانية وأوقفها قائلاً :

ـ انتظري دقيقة . انتظري دقيقة . حتى لو ذهبتِ ، فلن تذهبي الآن .

فصاحت :

ـ اتركني أذهب . اتركني أذهب . إنَّ مكاني هو إلى جانب جيل . يا لها من صغيرة مسكينة . إنها تنفث قلبها في تنهداتها .

قال الفتى بمرارة :

ـ أجل. وقلبك أيضاً . وقلبي بالإضافة إلى ذلك .

قالت مارش :

ـ قلبك ؟؟

كان ما يزال يمسكها بإحكام ويحتجزها . قال :

ـ أليس طيباً كقلبها ؟؟ أم هل تعتقدين أنه ليس كذلك ؟؟

فقالت مرة أخرى معبرة عن ارتيابها :

ـ قلبك ؟؟

ـ أجل، قلبي !.. قلبي !.. هل تعتقدين أنني لا أملك قلباً ؟؟

وبمسكته الحارة أخذ يدها وضغطها تحت ثديه الأيسر قائلاً :

ـ ها هو ذا قلبي إنْ كنتِ لا تؤمنين بذلك .

كانت المعجزة هي التي جعلتها تصغي . وعندئذ أحست نبض قلبه العميق ، الثقيل ، القوي ، مريعاً كشيء من العالم الآخر . كان كشيء من الآخرة ، شيء مرعب من الخارج يومىء لها . وشلّتها الإشارة . راحت تطرق على روحها بالذاتِ ،

وجعلتها عاجزة . نسيت جيل . لم تعد تستطيع التفكير فيها . ذلك الإيماء المريع من الخارج ! . .

وضع الفتى ذراعه حول خصرها وقال بلطف :

- تعالي معي . تعالي ودعينا نُقل ما علينا أن نقوله .

وسحبها إلى الخارج ، وأغلق الباب . وذهبت معه على نحو غامض نزولاً إلى ممر الحديقة . أن يكون لديه قلب ينبض ! . . وأن يضع ذراعه حولها خارج البطانية ! . . كانت أشد تشويشاً من أن تفكّر من كان أو ماذا كان .

أخذها إلى ركن مظلم من الحظيرة ، حيث كان ثمة صندوق عُدَدٍ بغطاء طويل وخفيض ، وقال :

- سنجلس هنا دقيقة .

وبانصياع جلست إلى جانبه . قال :

- أعطني يدك .

أعطته يديها معاً ، وأمسك بهما بين يديه . كان شاباً وقد جعله ذلك يرتجف . وناشدها قائلاً :

- ستتزوجينني . ستتزوجينني قبل أن أرجع ، أليس كذلك ؟؟

قالت :

- يا إلهي ، ألسنا معاً زوجاً من الحمقى ؟؟

كان قد وضعها في الزاوية ، بحيث لا يتحتم عليها أن تنظر الى الخارج وترى نافذة المنزل المضاءة عبر الحديقة المظلمة . كان يحاول أن يُبقيها تماماً هناك داخل الحظيرة معه . قال :

- في أية طريقة نحن زوج من الحمقى ؟؟ لو تعودين الى كندا معي . لقد حصلتُ على عمل ، وأجرٌ حسن ينتظرني ، وهي مكان رائع قرب الجبال . لماذا لا ينبغي عليك أن تتزوجيني ؟؟ لماذا لا ينبغي علينا أن نتزوج ؟؟ إنني لأحب أن

تكوني معي هناك . إنني لأحب أن أشعر أنني قد حصلت على شخص ما هناك ، خلفي ، طوال حياتي .

قالت :

ـ ستجد بسهولة شخصاً آخر يناسبك وعلى نحو أفضل .

ـ أجل ، قد أجد بسهولة فتاة أخرى . أعرف أن ذلك في مقدوري . ولكن لن أجد واحدة أردتها فعلاً . لم أقابل قط فتاة أردتها فعلاً . هل تفهمين ؟ إنني أفكر بحياتي كلها . إذا تزوجتُ فإنني أريد أن أشعر أنه من أجل حياتي كلها . الفتيات الأخريات : حسنٌ ، إنهن فتيات فقط ، لطيفات بما فيه الكفاية للتنزه معهن بين الفينة والفينة . لطيفات بما فيه الكفاية لقليل من اللهو . ولكنني عندما أفكر بحياتي ، فسأكون آسفاً عندئذ أن يتحتم عليَّ أنْ أتزوجَ واحدة منهن . سأكون آسفاً فعلاً .

ـ تقصد أنهن لن يصنعن زوجة صالحة لك ؟

ـ أجل ، أقصد ذلك . ولكنني لا أقصد أنهن لن يقمن بواجبهن بقربي . أقصد ـ لا أعرف ماذا أقصد . فقط عندما أفكر بحياتي ،وبكِ ،.فإنَّ الشيئين ينسجمان معاً .

قالت بطابعها الساخر الغريب :

ـ وماذا إذا لم ينسجما ؟؟؟

ـ حسناً . أعتقد أنهما سينسجمان .

جلسا صامتين بعض الوقت . كان يمسك بيديها في يديه ، ولكنه لم يطارحها الهوى . فمنذ أن أدرك أنها كانت امرأة ، وسريعة التأثر ، وسهلة المنال ، استحوذ على روحه ثِقَلٌ ما . لم يُرِدْ أن يطارحها الهوى . لقد نفر من أيِّ سلوك كهذا ، بخوف تقريباً . كانت امرأة ، وسريعة التأثر ، وسهلة المنال بالنسبة له أخيراً ، وقد تراجع عن ذلك الذي كان أمامه بفزع تقريباً . كان ذلك ضرباً من الظلام عرف أنه سيَدْخُلُه في النهاية ، ولكنه لم يكن يريد حتى الآن أن يفكر به . كانت المرأة ، وكان مسؤولاً عن الحساسية الغريبة التي كان قد أدركها فيها . قالت أخيراً :

ـ كلا . إنني حمقاء . أعرف أنني حمقاء .

سألها :

- لِمَ ؟؟

- لأنني أستمر في هذه القضية .

سألها :

- هل تقصدينني ؟؟

- كلا . أقصد نفسي . إنني أجعل من نفسي حمقاء ، وحمقاء كبيرة .

- عجباً ا . . ألأنك لا تريدين أن تتزوجيني في الواقع ؟؟

- أوه . لا أعرف فيما إذا كنتُ ضِدَّ ذلك ، في الحقيقة . إنَّ هذا هو الأمر تماماً . لا أعرف .

نظر إليها في الظلام وقد أُرْبِك . لم يعرف ما كانت تعنيه على الأقل .

سألها :

- وَألا تعرفين إنْ كنتِ تحبّينَ أن تجلسي معي هنا في هذه الدقيقة أم لا ؟؟

- لا . لا أعرف حقاً . لا أعرف فيما إذا كنتُ أتمنّى أنْ أكون في مكان آخر ، أو فيما إذا كنتُ أحبُّ وجودي هنا . لا أعرف حقاً .

سألها كَتَحَدٍّ :

- هل تتمنين أن تكوني مع الآنسة بانفورد ؟؟؟ هل تتمنين لو ذهبتِ الى الفراش معها ؟؟

وانتظرت وقتاً طويلاً قبل أن تجيب أخيراً قائلة :

- كلا . لا أتمنى ذلك .

قال :

- وهل تعتقدين أنك ستمضين حياتك كلها معها عندما يَبْيَضُّ شَعرُك وتهرمين ؟؟

قالت بدون تردد كثير :

- كلا لا أرى نفسي وجيل كامراتين مُسِنَّتين معاً .

قال :

ـ والا تعتقدين أنه عندما أكون رجلاً عجوزاً وانت امراة هرمة ، فقد نكون ما نزال معاً كما نحن الآن ؟؟

أجابت :

ـ حسناً . ليس كما نحن الآن ، ولكنني أستطيع ان اتخيل ـ كلا ، لا استطيع . لا أستطيع ان اتخيلك رجلاً عجوزاً . وفوق ذلك إنه لأمر مريع .

ـ ماذا ؟ أن أكون رجلاً عجوزاً ؟؟

ـ اجل ، طبعاً .

قال :

ـ ليس عندما يجيء الزمن . ولكنه لم يأت . فقط سيأتي . وعندما نفعل ساحب ان افكر انك ستكونين هناك ايضاً .

قالت بجفاف :

ـ نوع من مآوي العَجَزَة .

كان دائماً يجفله نوع مزاجها الأحمق . لم يعرف قط ماذا كانت تعني . وعلى الأرجح لم تعرف هي نفسها تماماً . قال وقد جُرِح :

ـ كلا .

قالت :

ـ لا اعرف لماذا تضرب على وتر الكهولة . لستُ في التسعين .

سأل مغتاظاً :

ـ وهل قال أيُّ شخص قط ذلك ؟؟

كانا صامتين بعض الوقت وهما يجذبان طُرُقاً مختلفة من الصمت . قال :

ـ لا أريدك أن تسخري مني .

اجابت على نحو مبهم :

ـ حقاً ؟؟

ـ كلا لأنني في هذه الدقيقة بالذات جديٌّ . وعندما اكون جِدّيّاً ازمع بعدم السخرية من ذلك .

أجابت :

ـ تقصد أنه لا ينبغي على أي شخص آخران يسخر منك .

ـ أجل . أقصد ذلك . وأقصد أنني لا أؤمن أن أسخر أنا نفسي من ذلك . وعندما يستبد بي الشعور بحيث أكون جِدِّيًّا ، عندئذ ـ ذلك هو الأمر ، لا أريد لأحد أن يسخر من ذلك .

صمتت بعض الوقت ، ثم قالت بصوت غامض ، يكاد يكون متألماً :

ـ كلا . إنني لا أسخر منك .

وارتفعت موجة ساخنة في قلبه . سألها :

ـ إنك تصدقينني . أليس كذلك ؟؟

أجابت بمسحة من لا مبالاتها القديمة المتعبة ، وكأنها استسلمت لأنها كانت متعبة :

ـ أجل . أصدقك .

ولكنه لم يكترث . كان قلبه صاخباً وحاراً .

ـ إذن توافقين على الزواج مني قبل أن أذهب ؟؟ ربما في عيد الميلاد ؟؟؟

ـ أجل . أوافق .

فهتف قائلاً :

ـ رائع ! .. لقد حَسَمَ ذلك الموضوع .

وجلس صامتاً ، دونما وعي ، وجميع دمائه تشتعل في عروقه كلها ، كالنار في جميع فروعه وأغصانه . ضغط فحسب يديها الإثنتين إلى صدره ، دون أن يدري .

وعندما بدأت نوبة الانفعال الغريبة تخمد ، بدا وهو يعود متيقظا إلى العالَم . قال وكأنه أدرك أن الطقس بارد :

ـ سندخل ، هل نفعل ؟؟

نهضت دون جواب . قال :

ـ قبّليني قبل أن نذهب ، الآن وقد قُلْتِ ذلك .

وقبّلها بلطف على فمها ، قبلة صغيرة مرتعبة . وقد جعلتها القبلة تشعر أنها شابة جدا ومرتعبة ومتسائلة : ومتعبة ، متعبة وكأنها كانت ذاهبة للنوم .

دَلَفا الى الداخل . وهناك ، في غرفة الجلوس ، كانت بانفورد تتكوم قرب النار كساحرة صغيرة غريبة .

نظرت حولها بعينين محمرتين عندما دخلا ، لكنها لم تنهض . وفكر انها تبدو مرعبة ، غير طبيعية ، وهي تتكوم هناك وتنظر حولها إليهما . واعتقد أن مظهرها كان شريرا ، وَشَبَكَ أصابعه .

ورأت بانفورد الوجه المتورد التيّاه على جسد الفتى : كان يبدو طويلاً ولمّاعاً ومتضخّما على نحو غريب . وكان يرين على وجه مارش مظهر رقيق . كانت تريد أن تخفي وجهها ، أن تستره ، وألاّ تَدَعه مرئيا . قالت بانفورد بمشاكسة :

- لقد أتيتما اخيرا .

قال :

- اجل ، لقد اتينا .

قالت :

- لقد قضيتما وقتا طويلا بما فيه الكفاية لعمل أيّ شيء .

أجاب :

- أجل . لقد قضينا . لقد حسمنا الأمر . سنتزوج بأسرع ما يمكن .

قالت بانفورد :

- اوه . لقد حسمتما الأمر . حقا ! . . حسنا ، آمل ألاّ تعيشا إلى الوقت الذي تندمان فيه على ذلك .

أجاب :

- آمل ذلك ايضا .

قالت بانفورد :

- هل ستذهبين الى الفراش «الآن» ، يا نيللي ؟

- أجل انا ذاهبة الآن .
- إذن بحق السماء هيا .

نظرت مارش الى الفتى . كان يلقي نظرات عجلى بعينيه البراقتين جدا ، عليها وعلى بانفورد .

نظرت مارش اليه بكآبة وتمنت لو كان في ميسورها أن تبقى معه . تمنت لو كانت قد تزوجته الآن ، وانتهى كل هذا الأمر . إذْ أنها ، اوه ، شعرت فجأة أنها في أمان بالغ معه . شعرت على نحو غريب جدا بالأمان والهدوء بوجوده . ليت في مقدورها أنْ تنام في كَنَفِه ، وليس مع جيل . وشعرت بالخوف من جيل . في حالتها الرقيقة والغامضة كان من الألم المُبَرِّح أن يتحتم عليها الذهاب مع جيل والنوم معها . كانت تريد أن ينقذها الفتى . ونظرت اليه مرة أخرى .

وقد تكهن هو ، وهو يراقب بعينيه البراقتين ، بشيء مما أحست به . وقد أربكه وضايقه أنه يتحتم عليها الذهاب مع جيل .

قال وهو ينظر بوضوح في عينيها ، في عينيها تماما ، بحيث بدا أنه يحتل نفسها كلها بنظرته البراقة الغريبة :
- لن أنسى ما وَعَدْتِ .

ابتسمت له على نحو باهت ولطيف . شعرت بالأمان مرة أخرى . بالأمان معه .

ولكن على الرغم من جميع تدابير الفتى الوقائية فقد مُنِيَ بهزيمة .

ففي الصباح الذي غادر فيه المزرعة أقنع مارش أن تصحبه الى البلدة ، على مبعدة ستة أميال تقريبا ، حيث ذهبا الى أمين السجل وألصق اسماهُما كشخصين على وشك الزواج . وكان عليه أن يأتي في عيد الميلاد ، وكان من المقرر أن يحدث الزواج في ذلك الوقت . كان يأمل أن يكون قادرا في الربيع على أخذ مارش معه رجوعا الى

كندا الآن وقد انتهت الحرب حقا . وعلى الرغم من أنه كان يافعا جدا ، إلاّ أنه كان قد ادّخرَ بعض النقود .

كان يقول : «لا ينبغي عليكَ أبدا أن تبقى دون بعض النقود كخلفيةٍ لكَ إذا كنتَ تستطيع إلى ذلك سبيلاً» .

وهكذا فقد وَدَّعتْهُ في القطار المتجه الى الغرب : فقد كان معسكره في سهل «سالزبوري» . وبعينين كبيرتين قاتمتين راقبته وهو يمضي ، وبدا لها وكأن كل شيء حقيقي في الحياة كأن ينسحب بينما كان القطار ينسحب بوجهه المتورد المكتنز الغريب ، والذي كان يبدو عريضا جدا عبر الوجنتين ، والذي لم يَبْدُ قط أنه غيّرَ تعبيره ، إلاّ عندما كانت ترتسم غيمة من الغضب العابس على جبهته ، أو تُثبّتُ عيناه البرّاقتان نفسيهما في تحديقهما .

كان هذا ما حدث الآن . اتّكأ هناك خارج نافذة العربة فيما كان القطار ينسحب وهو يقول لها وداعا ويعيد التحديق فيها ، ولكن وجهه كان ثابتا تماما . لم يكن ثمة إحساس على وجهه . فقط ضاقت عيناه وأصبحتا ثابتتين ومُركّزَتيْن في مراقبتهما كعينيْ قطة عندما ترى فجأة شيئا ما وتحدق . وهكذا راحت عينا الفتى تحدقان بثبات فيما كان القطار يبتعد ، مُخلّفاً إيّاها وهي تشعر أنها مهجورة عاطفيا . وبانقطاع حضوره الجسديّ ، بدا لها أنه ليس لديها شيء منه . ولم يكن لديها شيء من أيّ شيء . فقط كان وجهه مثبتا في مخيلتها : الوجنتان المليئتان المتوردتان الثابتان ، والخطم المستقيم لأنف ، والعينان المحدّقتان فوقه . وكل ما استطاعت أن تتذكره هو كيف كان يُجعّدُ فجأة أنفه عندما كان يضحك ، مثلما يفعل جَرْوٌ عندما يَهرُّ لاهيا . ولكنه هو ، هو نفسه ، وماذا كان ـ لم تكن تعلم شيئا . لم يكن لديها شيء منه عندما تركها .

وفي اليوم التاسع بعد مغادرته استلم منها هذه الرسالة :

«عزيزي هنري :

لقد رُحْتُ أقلّبُ الأمرَ برمّته في مخيلتي ، بخصوص قضيتي وقضيتك ، وهي

تبدو لي مستحيلة . عندما لا تكون موجودا أشعر أية حمقاء أنا . وعندما تكون موجودا يبدو أنك تعميني عن رؤية الأشياء كما هي عليه في الواقع . إنك تجعلني أرى الأشياء برمّتها زائفة ، ولا أعرف الغَثَّ من السمين . ثم عندما أكون مرة أخرى لوحدي مع جيل ، يبدو لي أنني أثوب إلى حواسّي وأدرك أية حمقاء أنصب من نفسي ، وكيف أعاملك على نحو مخادع ، لأنه ينبغي أن يكون الأمر بالنسبة لك مخادعا من ناحيتي أن أستمر في هذا القضية في حين أنني لا أستطيع أن أشعر في قلبي أنني أحبك فعلا .

أعرف أن الناس يتحدثون عن الحب بكثير من اللغو والهراء ولا أريد أن أفعل ذلك . أريد أن ألتزم بالحقائق البسيطة وأتصرف بطريقة واعية . وذلك ما لا أفعله ، على ما يبدو لي . لا أستطيع أن أرى على أية أسس سأتزوجك . أعرف أنني لست مُتَيَّمَةً بحبك ، مثلما كنت أتخيل نفسي مع الفتيان عندما كنت فتاة صغيرة حمقاء . أنت غريب تماما بالنسبة لي ، ويبدو لي أنك ستكون دائما كذلك . لذا على أية أسس سأتزوجك ؟؟ عندما أفكر بجيل أحد أنها أكثر أصالة بالنسبة لي بعشرة أضعاف . انني أعرفها وأنا مولعة بها إلى أبعد حد ، وأنا أكره نفسي وكأنني حيوان لو جرَحْتُ قطّ إصبعَها الصغير . إنَّ لنا حياةً مع بعضنا البعض . وحتى لو لم يكن في مقدورها أن تدوم إلى الأبد ، فإنها حياة طالما هي مستمرة فعلاً . وقد تدوم ما عاشت أيٌّ منا . من يعرف كم يتعين علينا أن نعيش ؟؟ إنها امرأة صغيرة مرهفة ، وربما لا يعرف أحد سواي كم هي مرهفة . فيما يتعلق بي ، فأنا أشعر أنني قد أسقط في البئر في أيّ يوم . وما لا يبدو لي أنني أراه على الإطلاق هو أنت . عندما أفكر ماذا كنتُ وماذا فعلتُ معكَ أخشى أن يكون بي مَسٌّ من الجنون . ويتحتم عليَّ الشعور بالأسف لأن أفكر بأن تليين الدماغ هو البداية المبكرة جداً ولكن هذا ما يبدو مُرَجَّحاً . إنك غريب تماماً إلى حد كبير ، ومختلف جداً عما اعتدت عليه ، ولا يبدو أن بيننا شيئاً واحداً مشتركاً . فيما يتعلق بالحب الكلمة بحد ذاتها تبدو مستحيلة . إنني أعرف ماذا يعني الحب حتى في حالة جيل ، وأعرف ، في هذه المسألة معك ، أنه استحالة مطلقة . ثم الذهاب إلى كندا . أنا على ثقة من أنني بلا ريب كنت خِلواً من رأسي عندما وَعَدْتُ بشيء من هذا القبيل . إنَّ ذلك يجعلني مرتعبة إلى حد ما من نفسي . أشعر أنني ربما كنت أفعل شيئاً

سخيفاً حقاً لم أكن مسؤولة عنه ، وأنهي أيامي في مَضعٌ للمجانين . وقد تعتقد أن ذلك هو كل ما أنا أهل له بعد الطريقة التي تابعتُ بها ، ولكنها ليست فكرة جميلة جداً بالنسبة لي . وشكراً للسماء لأن جيل هنا ، فوجودُها هنا يجعلني أشعر أنني سليمة العقل مرة أخرى ، وإلاّ فإنني لا أعرف ما قد أفعل . قد أتعرض لحادث مع البندقية ذات مساء . إنني أحب جيل ، وهي تجعلني أشعر بالأمان وسلامة العقل ، بغضبها الحنون ضِدّي لكوني حمقاء هكذا . حسناً ، ما أريد أن أقوله هو : ألَنْ تَدَعنا ننقض الأمر برمته ؟؟؟ لا أستطيع أن أتزوجك وفي الواقع لن أقوم بعمل كهذا إذا كان يبدو خاطئاً بالنسبة لي . إن الأمر كله خطأ كبير . لقد جعلتُ من نفسي حمقاء كاملة ، وكل ما في مقدوري أن أفعله هو أن أعتذر لك وأطلب منك أن تنساه لو سمحت ، وأرجو ألاّ توليني انتباهاً بعد الآن . إنّ جلدَ ثعلبك جاهز تقريباً ، ويبدو على ما يرام ، وسوف أرسله لك بالبريد لو أُتِحْتَ لي أن أعلم فيما إذا كان هذا العنوان ما يزال صحيحاً ، وفيما إذا كنتَ ستقبل اعتذاري عن الطريقة المريعة والمجنونة التي سلكتُها معك ، وعندئذ نترك الأمر يستقر .

إنّ جيل ترسل لك أطيب تحياتها . سيمكث والدها ووالدتها معنا حتى انقضاء عيد الميلاد .

المخلصة

إيلين مارش

قرأ الفتى هذه الرسالة في المعسكر بينما كان ينظف عدته .

وأطبق فكيه بإحكام واستحال شاحباً تقريباً لمدة دقيقة ، واصفرَّ ما حول عينيه في حنق . لم يقل شيئاً ، ولم يَرَ شيئاً ، ولم يشعر بشيء سوى غضب مُزْرَقّ كان جامحاً تماماً . لقد أُحْبِطَ !.. أُحْبِطَ مرة أخرى !.. أُحْبِطَ . كان يريد المرأة ، وكان قد قَرَّ قرارُه كالقَدَر على الحصول عليها . شعر أن ذلك كان قَدَرَه ، قِسْمَتَهُ ، ومكافأته ، أن يحصل على هذه المرأة . كانت جَنَّتَهُ وجهنَّمَهُ على الأرض ، ولن يحصل على أيٍّ منهما في أيِّ مكان آخر . وأكمل الصنباحَ وقد أعماه الغيظ والجنون المحبط . ولولا أنه كان

يترصد ويرسم خطة في ذهنه في اتجاه مخرج ، لارتكب عملاً جنونياً ما . وشعر في أعماق نفسه أنه مَيّال إلى الزئير والعواء وصرّ الأسنان وتكسير الأشياء . ولكنه كان عاقلاً جداً . كان يعرف أن المجتمع يعلوه وعليه أن يخطط . لذا ، وبأسنانه وقد قضمت بعضها بعضاً ، وبأنفه وقد رُفِعَ على نحو طفيف وغريب ، كمخلوق وحشي ، وبعينيه وقد استقرّتا وراحتا تحدقان ، أكمل شؤون الصباح وقد أثمله الغضب والكبت . وكان في ذهنه شيء واحد : بانفورد . ولم يُولِ اهتماماً لكل ضَبيب مارش : مطلقاً . واعتملت شوكة واحدة ، والتصقت بذهنه . بانفورد . في ذهنه ، في روحه ، وفي كيانه برمّته ، شوكة واحدة تفور ملتهبة حتى الجنون . وسيكون عليه أن يخرجها . سيكون عليه أن يستخرج شوكة بانفورد من حياته ، ولو مات في سبيل ذلك .

وبهذه الفكرة الثابتة والوحيدة في ذهنه ذهب ليطلب إذناً بالغياب لمدة أربع وعشرين ساعة . كان يعرف أنها غير وافية بالنسبة له . كان وعيه حاداً على نحو خارق . كان يعرف أين يجب أن يذهب . يجب أن يذهب إلى النقيب . ولكن كيف في مقدوره الوصول إلى النقيب ؟؟ في ذلك المعسكر الكبير من الأكواخ الخشبية والخيام لم تكن لديه فكرة أين نقيبُه .

ولكنه ذهب إلى مطعم الضباط . وهناك كان نقيبه يقف وهو يتحدث إلى ثلاثة ضباط آخرين . ووقف هنري منتصباً ساكناً في المدخل .

ـ أيمكنني التحدث إلى النقيب «بيريمان» ؟؟

كان النقيب كُورنِيّاً مثله .

صاح النقيب :

ـ ماذا تريد ؟

ـ أيمكنني التحدث إليك أيها النقيب ؟؟

أجاب النقيب دون أن يتحرك من وسط مجموعته من الضباط المرافقين :

ـ ماذا تريد ؟؟

راقب هنري رئيسه لمدة دقيقة دون أن يتكلم ، ثم سأل بوقار :
- لن ترفضني يا سيدي ، أليس كذلك ؟؟
- إنّ ذلك يعتمد على الموضوع .
- هل أستطيع الحصول على إجازة أربع وعشرين ساعة ؟؟
- كلا . ليس لديك حق في أن تطلب .
- أعرف أنه لا يحقّ لي . ولكن ينبغي عليّ ان اسألك ذلك .
- لقد حصلتَ على جوابك .
- لا تبعدني أيها النقيب .

كان ثمة شيء غريب بصدد الفتى وهو يقف هناك متيناً جداً في المدخل . وشعر النقيب الكورني بالغرابة على الفور وَحَدَجَهُ بنظرة داهية . قال بجدية :
- لماذا ، ما الخطب ؟؟
قال الفتى :
- إنني في مشكلة تتعلق بشيء ما . عليّ الذهاب إلى «بلوبيري» .
- «بلوبيري» ، هه ؟؟ وراء الفتيات ؟؟
- أجل ، إنها امرأة أيها النقيب .

وأصبح الفتى فجأة وعلى نحو مريع شاحباً ، أو أصفر اللون ، وبدت شفتاه تطلقان ألماً وهو واقف هناك وقد امتد رأسه إلى الأمام قليلاً . ورأى النقيب ذلك وشحب قليلاً أيضاً . استدار جانباً وقال :
- فلتذهب إذن . ولكن بحقّ الربّ لا تسبب أية مشكلة من أيّ نوع .
- لن أسبّبَ أيها النقيب ، وشكراً لك .

وذهب . وأخذ النقيب يقلق كأساً من الجنّ وشراباً مُسْكِراً .

ونجح هنري في استئجار دراجة . كانت الساعة الثانية عشرة عندما غادر المعسكر . كان عليه أن يعبر ستين ميلاً من الطرق الفرعية المبللة والموحلة . ولكنه امتطى سرج الدراجة وانحدر إلى الطريق دون فكرة عن الطعام .

وفي المزرعة كانت مارش منهمكة بعمل كانت قد أمضت بعض الوقت في تحضيره . كانت مجموعة من أشجار التنّوب الاسكتلندية تنتصب عند طرف الحظيرة المفتوحة على ضفة صغيرة حيث كان السياج يمتد بين مرجين من نباتات «الوزّال» الخشنة . كانت أبعد هذه الأشجار ميتة ، كانت قد ماتت في الصيف ، وانتصبت بكل أوراقها الإبرية بنية اللون وذابلة في الهواء .

لم تكن شجرة كبيرة جداً . وكانت ميتة ماتة في المائة . لذا قررتْ مارش الحصول عليها على الرغم من أنه لم يكن مسموحاً لها قطع أية شجرة . ولكنها ستضرم ناراً ساطعة إلى حد بعيد في أيام الوقود النادر هذه .

كانت قد منحت جذع الشجرة بضع ضربات مختلسة لمدة أسبوع أو أكثر ، وهي تقوم بين الفينة والفينة بضرب الشجرة ضربات متوالية ولمدة خمس دقائق عند أسفل الشجرة قرب الأرض بحيث لن يلاحظ أحد ذلك . لم تجرب المنشار ، فهو عمل مُضْنٍ تماماً لها بمفردها . الآن ها قد انتصبت الشجرة وفجوة فاغرة كبيرة في قاعدتها ، وجثمت ، إنْ جاز التعبير ، على عِرْقٍ واحد جاهزة للسقوط . ولكنها لم تسقط .

كان وقتاً متأخراً من أصيل كانون الأول الرطب ، والضباب الرقيق يدب خارج الغابات صُعُداً إلى التجاويف ، والظلام ينتظر أن يهبط من الأعلى . كان ثمة مسحةُ اصفرارٍ حيث كانت الشمس تضمحل مبتعدة وراء الغابات الخفيضة في المنطقة النائية . أخذت مارش فأسها وذهبت إلى الشجرة . وتردد صدى ضرباتها الصغيرة المكتومة على نحو غير مُجْدٍ إلى حد ما في جوار المسكن الشتائي . وخرجت بانفورد وهي ترتدي معطفها السميك ، ولكن بدون قبعة على رأسها ، بحيث أن شعرها المتفرق المعقوص كان يتطاير مع الريح المتقلقلة التي كانت تَصْفِرُ بين أشجار الصنوبر وفي الغابة . قالت بانفورد :

ـ إنّ ما أخشاه هو أنها ستسقط على الحظيرة وسيكون لدينا عمل آخر وهو إصلاح ذلك .

قالت مارش وهي تعدل قامتها وتمسح بذراعها جبينها الساخن :
ـ اوه . لا أعتقد ذلك .

كانت قد توردت بلون أحمر ، وكانت عيناها مفتوحتين باتساع كبير وغريبتين ، وقد ارتفعت شفتها العليا عن سِنّيها الأماميْن اليضاويْن بمظهر غريب يكاد يشبه مظهر الأرنب .

وأقبل رجل صغير بدين في معطف أسود وقبعة مستديرة سوداء وهو يمشي بتَوَانٍ عبر الساحة . كان ذا وجه ورديّ اللون ولحية بيضاء وعينين صغيرتين قليلاً بلون أزرق باهت . لم يكن طَاعِناً في السِّنّ ، ولكنه كان عصبي المزاج ، وكان يمشي بخطى قصيرة صغيرة .
قالت بانفورد :
ـ ما رأيك يا أبي ؟ ألا تعتقد أنها قد تضرب الحظيرة عند السقوط ؟؟
قال الكهل :
ـ الحظيرة ؟ كلا . لن يمكنها أن تضرب الحظيرة . يمكننا القول السياج .
قالت مارش بصوتها العالي :
ـ السياج لا يهم .
قال بانفورد وهي تبعد شعرها المتفرق عن عينيها :
ـ مخطئة كالعادة أنا ، أليس كذلك ؟

كانت الشجرة تنتصب على عِرْقٍ واحد من نفسها ، إنْ جاز التعبير ، وهي تميل وتَصِرُّ في الريح . كانت تنمو على ضفة قناة صغيرة جافة بين المرجين . وعلى قمة الضفة كان ينتشر سياج ممتداً الى الشجيرات في أعلى المنحدر . وقد تجمعت عدة أشجار هناك في زاوية الحقل قرب الحظيرة وقرب البوابة التي كانت تفضي الى الساحة . وباتجاه هذه البوابة ، وأفقياً عبر المروج الكئيبة ، يقع الممر المعشب المحفور والمتحدر من الطريق العام . وهناك كان يمتد سياج مُتَدَاعٍ آخر ، ألواحُ طويلة مشطورة تتصل بالأعمدة القصيرة السميكة العمودية والمتباعدة بمسافات عريضة . وقف الأشخاص

الثلاثة عند مؤخرة الشجرة في ركن مرج الحظيرة ، الى الأعلى من بوابة الساحة تماماً . كان المنزل برأسيْ مُثَلَّثَيْه وبمدخله المسقوف ينتصب أنيقاً في حديقة معشوشبة صغيرة عبر الساحة . وكانت امرأة صغيرة البنية ، بدينة ، وردية الوجه ، بشال كتف صوفي أحمر صغير ، قد أتت واخذت مكانها في المدخل المسقوف . وصاحت بصوت صغير عالٍ :

ـ ألم تسقط بعد ؟؟

صاح زوجها قائلاً :

ـ إننا نفكر بهذا منذ لحظات .

كانت نبرته مع الفتاتين ساخرة دائماً الى حد ما وهجائية . ولم تُرِدْ مارش أن تواصل ضرباتها خلال فترة وجوده هناك . فيما يتعلق به ، ما كان ليرفع قضيباً عن الأرض إذا استطاع الى ذلك سبيلاً ، وهو متذمر ، كابنته ، من الروماتيزم في كتفه . وهكذا وقف الثلاثة هناك صامتين لحظة في الأصيل البارد ، في الركن السفلي قرب الساحة .

وسمعوا أصوات البوابة البعيدة فمدوا أعناقهم لينظروا .

وعلى مبعدة وفي الجانب الآخر ، على الممر الأفقي الأخضر ، كان شبح يتمايل على دراجة يُلْتَوٌ ويترنح للأعلى وللأسفل فوق العشب وهو يدنو .

قال الكهل :

ـ عجباً ! . . إنه أحد فتياننا ـ إنه جاك .

قالت بانفورد :

ـ لا يمكن أن يكون .

ومدت مارش رأسها الى الأمام لتنظر . ووحدها ميْزت الطيف الخاكي . وتوردت ، ولكنها لم تقل شيئاً .

قال الكهل وهو يحدق بعينين زرقاوين مستديرتين صغيرتين تحت أهدابه البيض :

ـ كلا . إنه ليس جاك . لا أعتقد .

وفي لحظة تالية تمايلت الدراجة في المشهد ، وترجّلَ الراكب منها عند البوابة . كان هنري . كان وجهه مبللاً واحمرَ ومُلَطَّخاً بالوحل . كان المشهد برمته مشهداً موحلاً .

صاحت بانفورد وكأنها خائفة :

ـ أوه . يا إلهي . إنّه هنري ! . .

غمغم الكهل قائلاً :

ـ ماذا ؟؟

كان ذا طريقة تَحَدُّثٍ مغمغمة ، سريعة وكثيفة ، وكان أصَمّاً بشكل طفيف .

ـ ماذا ؟ ماذا ؟ مَنْ هو ؟ مَنْ تقولين أنه ؟ ذلك الشاب ؟؟ فتى نيللي اليافع ذلك ؟أوه . أوه .

وارتسمت الابتسامة الهجائية على وجهه الورديّ وأهدابه البيض .

وكان هنري ، وهو يدفع الشعر المبلل عن جبينه الذي يَنِدُّ عنه البخار ، قد لمحهم وسمع ما قال الكهل . وبدا وجهه الفتيُّ الحار يلتهب في الضوء البارد . قال وهو يطلق ضحكته الصغيرة المفاجئة كضحكة جَرْوٍ :

ـ أوه . هل أنتم جميعاً هناك ! . . .

كان شديد الحرارة وقد أصابه ركوبُ الدراجة بالدُّوار الى درجة أنه لم يعلم أين كان إلاّ بمشقة . أسند الدراجة على السياج وصعد إلى الركن ومنه الى الضفة دون أن يدخل الساحة . قالت بانفورد باقتضاب :

ـ حسناً . يتحتم عليّ أن أقول أننا لم نكن نتوقعك .

فقال وهو ينظر الى مارش :

ـ كلا . لا أعتقد ذلك .

كانت تقف على حدة ، بارتخاء ، وقد تدلت إحدى ركبتيها واستندت رأس الفأس على الأرض بشكل متقلقل . كانت عيناها متسعتين لا تعبير فيهما ، وقد رفعت شفتها العليا عن أسنانها بذلك المظهر الأرنبي البائس المـلوب . وفي اللحظة التي رأت فيها وجهه الأحمر المتوهج انتهى كل شيء . كانت عاجزة وكأنها مقيدة لحظة رؤيتها للطريقة التي بدا فيها رأسه يتقدم للأمام .

قال الكهل المبتسم الهجّاء بصوته المغمغم :

ـ حسناً . مَنْ يكون ؟؟ مَنْ هو على أية حال ؟؟؟

قالت بانفورد ببرود :

ـ إنه السيد غرينفل الذي سمعتنا نتكلم عنه يا والدي .

فغمغم الكهل وقد ارتسمت على وجهه ابتسامته الساخرة الصغيرة الغريبة :

ـ سمعتكم تتكلمون عنه ، يجب أن أعتقد ذلك . لم أسمع عن سواه في الواقع .

وأضاف وهو يمد يده فجأة الى هنري :

ـ كيف الحال ؟؟

وصافحه الفتى وكأنه مجفل تماماً . ثم ابتعد الرجلان عن بعضهما . وسأله الكهل :

ـ هل ركبتَ الدرّاجة من سهل « سالزبوري » حقاً ؟؟

ـ أجل .

ـ هِمم ! . . ركبتَ مسافة طويلة . كم أخذ ذلك منك ، هه ؟؟ بعض الوقت ، هه ؟؟ عدة ساعات على ما أعتقد .

ـ أربع تقريباً .

ـ هه؟ أربع! . . أجل. كان يجب أن أعتقد ذلك. متى ستعود إذن؟؟

ـ لديَّ من الوقت حتى مساء الغد.

ـ حتى مساء الغد، هه؟ أجل. هِمْمْ! لم تكن الفتاتان تتوقعانك، أليس كذلك؟؟

وأدار الكهل عينيه الزرقاوين الباهتتين المستديرتين والصغيرتين تحت أهدابهما البيض نحو الفتاتين بسخرية. ونظر هنري حوله أيضا. كان قد أصبح مرتبكا قليلا. نظر إلى مارش التي كانت ما تزال تحدق بعيدا الى المنطقة النائية وكأنما لترى أين الماشية. كانت يدها على مقبض الفأس الذي كان يستند على الأرض بشكل متقلقل. سألها بصوته الناعم اللطيف:

ـ ماذا كنتِ تفعلين هناك؟ تقطعين شجرة؟؟

وبدا أن مارش لم تسمع وكأنها في انتشاء. قالت بانفورد:

ـ أجل. إننا نحاول ذلك منذ أكثر من أسبوع.

ـ اوه. وهل قمتما بذلك كله لوحدكما إذن؟؟

قالت بانفورد:

ـ لقد قامت نيللي بكل ذلك. لم أفعل أنا شيئا.

فقال مخاطبا مارش مباشرة في نبرة غريبة لطيفة:

ـ حقا!.. لا بد وأنك عملت بجدٍّ بكل ما للكلمة من معنى.

لم تُجِبْ، بل بقيت نصف ملتفتة وهي تحدق بعيدا نحو الغابة الى الأعلى وكأنها في نشوة.

صرخت بانفورد بحدة:

ـ نيللي!.. ألا تستطيعين الإجابة؟؟

صاحت مارش وهي تجفل مستديرة وتنظر إليهم الواحد تِلْوَ الآخر:

ـ ماذا، أنا؟؟ هل تحدث أيٌّ شخص إليَّ؟؟

فغمغم الكهل وهو يستدير جانبا ليبتسم:

ـ تحلمين!.. لا بد وأنك عاشقة، هه، تحلمين في النهار!..

قالت مارش وهي تنظر الى الفتى وكأنما من منطقة بعيدة غريبة، بعينين متسعتين مرتابتين ووجه متورد على نحو رقيق:

ـ هل قلت أيَّ شيء لي؟؟

أجاب بدماثة:

- قلت أنكِ ولا بدّ عملتِ بجدٍّ عند الشجرة.

- أوه. تلك. قليلا قليلا. كنت أعتقد أنها ستكون قد سقطت حتى الوقت الحاضر.

قالت بانفورد:

- إنني سعيدة لأنها لم تسقط في الليل وترعبنا حتى الموت.

قال الفتى:

- دَعِيني أُنهِ ذلك تماما لكما. هل أفعل؟؟

فأمالت مارش عمود الفأس في اتجاهه وقالت:

- هل تحب أن تفعل ذلك؟؟

قال:

- أجل، إذا كنتما ترغبان.

أجابت لا مبالية:

- أوه. أكون شاكرة عندما ينتهي هذا العمل. ذلك كل ما في الأمر.

قالت بانفورد:

- في أيّ اتجاه ستسقط؟؟ هل ستصيب الحظيرة؟؟

قال:

- كلا. لن تصيب الحظيرة. يتحتم عليّ الاعتقاد بأنها ستسقط هناك، بعيدا عنها تماما. مع ذلك قد تقتل وتصيب السياج.

صاح العجوز قائلاً:

- تصيب السياج!.. ماذا!.. تصيب السياج!.. وهي تميل بتلك الزاوية؟؟ عجباً، إنّه أبعد من الحظيرة. لن تصيب السياج.

قال هنري:

- كلا. لا أعتقد أنها ستصيبه. لديها مكان وافر لتسقط بعيدة تماما، وأعتقد أنها ستسقط بعيدة عنه.

قال الكهل على نحو هجائي:

- لن تهوي إلى الخلف على رؤوسنا، أليس كذلك؟؟

قال هنري وهو يخلع معطفه القصير وسُتْرَته:

- كلا. لن تفعل ذلك. أيتها البطّات!. أيتها البطّات!.. ارجعي!..

كانت مجموعة من أربع بطات منقطة باللون البنّي يقودها علجومٌ(*) تتقدم نازلة من المرج العلويّ، كزوارقَ تنساب فوق بحر مضطرب وتشق طريقها بأقصى سرعة نزولا في اتجاه السياج وفي اتجاه مجموعة الأشخاص الصغيرة، وتصيح باهتياج وكأنها تحمل أنباء عن الأسطول الأسباني.(**).

صاحت بانفورد وهي تتقدم لإبعادها:

- طيور بلهاء!.. طيور بلهاء!..

ولكن البطات تقدمت بلهفة نحوها وهي تفتح منافيرها الخضر والصفر وتبطبط وكأنها متحمسة لقول شيء ما. قالت بانفورد لها:

- لا يوجد طعام هنا. لا شيء هنا. يجب أن تنتظري قليلا. ابتعدي. ابتعدي. عودي الى الساحة.

ولم تذهب البطّات، لذا تسلقت السياج لتجعلها تحرف سيرها مستديرة تحت البوابة والى الساحة. وهكذا تهادت مبتعدة في قافلة مستثارة مرة أخرى، وهي تهز مؤخراتها كمقدمات زوارق الجندول الصغيرة، وتنحني تحت قضيب البوابة. ووقفت بانفورد على قمة الضفة، فوق السياج تماما، وهي تنظر الى الأسفل، الى الثلاثة الآخرين.

(*) العلجومُ: ذكر البط. المترجم.

(* *) وَجُّهَتْ اسبانيا اسطولا حربيا عام ١٥٨٨ لمقاتلة الانكليز ولكن العواصف والأسطول الانكليزي دمرت معظمه، وكان اسم الأسطول الاسباني: الأرمادا التي لا تقهر. المترجم.

رفع هنري نظره إليها، وقابل عينيها الغريبتين الضعيفتين ببؤبؤيها المستديرين وهما تحدقان خلف نظارتها. كان ساكنا تماما. وابتعد بنظره نحو الأعلى، إلى الشجرة الضعيفة المائلة. وعندما نظر الى السماء، كصياد يراقب طائرا يطير، فكر في قرارة نفسه: «إذا سقطت الشجرة بطريقة صحيحة تماما، ودارت بسرعة كبيرة وهي تسقط فحسب عندئذ سيضربها الغصن الذي هناك تماما حيث تقف على قمة تلك الضفة.».

نظر إليها ثانية. كانت تبعد الشَّعْرَ عن جبينها مرة أخرى، بتلك الإيماءة الأبدية. في قرارة قلبه كان قد قرر موتها. وتراءت فيه قوة ساكنة مريعة، وطاقة كانت طاقته هو فقط. ولو استدار، حتى قيد شعرة في الاتجاه الخاطىء، فسيفقد الطاقة. قال:

ـ انتبهي لنفسك يا آنسة بانفورد.

وبقي قلبه مشدودا وهو ساكن تماما الى الرغبة الخالصة المريعة في أنها لا يجب أن تتحرك.

صاحت بانفورد وقد رانت على صوتها نبرة والدها الساخرة:

ـ مَنْ؟؟ أنا؟؟ أنتبه لنفسي؟؟ لماذا؟ هل تعتقد أنك قد تضربني بالفأس؟؟

أجاب بوقار:

ـ كلا، بل إنه لَمِنَ المحتمل فحسب أن الشجرة قد تفعل مع ذلك.

ولكن نبرة صوته بدت لها متضمنة أنه كان جَزِعاً على نحو مخادع فحسب، وأنه يحاول أن يجعلها تتحرك لأنها كانت رغبته في أن يحركها. قالت:

ـ مستحيل مائة في المائة.

سممها. ولكنه أبقى نفسه ساكنا باردا الى حد بعيد، خشية أن يفقد طاقته.

ـ كلا. إنه من المحتمل فقط. يحسن بك أن تنزلي من هذا الاتجاه.

ردت قائلة:

ـ اوه. حسنا. دَعْنَا نَرَ شيئا من قَطْع الأشجار الكنديِّ الممتاز.

قال وهو يأخذ الفأس وينظر حوله ليرى إذا كان واضحا:
- استعدي اذن.

وكان ثمة لحظة من الترقب الساكن الخالص عندما تراءى أن العالم يقف ساكنا. ثم وعلى حين غرة بدت هيئته تومض على نحو هائل طويلة ومخيفة، وضرب ضربتين سريعتين مومضتين في تتابع فوريّ. وفُصِلَت الشجرة وهي تدور ببطء وتفتل بسرعة وعلى نحو غريب في الهواء وتهوي كظلام مفاجيء على الأرض. لم يَرَ أحد سواه ما كان يجري. لم يسمع أحد الصرخة الصغيرة الغريبة التي أطلقتها بانفورد عندما انقضّ الطرفُ المظلمُ من الغصن نازلا، نازلا عليها. لم يرها أحد تنحني قليلا وتتلقى الضربة على مؤخرة عنقها. لم يرها أحد وهي تُقْذَفُ نحو الخارج وتُطْرَح على الأرض بقوة، كومةً صغيرةً منتفضةً، عند أسفل السياج. لا أحد باستثناء الفتى. وراح يراقب بعينين حادتين براقتين كما لو كان يراقب إوزّةً برية كان قد أطلق النار عليها. هل هي جريحة أم ميتة؟؟

ميتة!..

وعلى الفور أطلق صرخة عالية. وعلى الفور أطلقت مارش صرخة مسعورة مضت بعيدا، بعيدا مع الأصيل. وبدأ الأب يجأر بخوار غريب.

وتخطى الفتى السياج واثبا وركض الى الحافة. كانت مؤخرة العنق والرأس كتلة من الدم، من الرعب. قَلْبها. كان الجسد ينتفض بتشنجات قليلة. ولكنها كانت ميتة في الواقع. عرف ذلك. عرف أن الأمر كان كذلك. عرف ذلك في روحه ودمه. كانت ضرورة حياته الداخلية تحقق ذاتها. كان هو مَنْ يجب أن يعيش. كانت الشوكة قد سُحِبَتْ من أحشائه. لذا أنزلها برفق. كانت ميتة.

نهض واقفا. كانت مارش تقف هناك مصعوقة وفاقدة الحراك بكل ما في الكلمة من معنى. كان وجهها شاحبا شحوب الموتى، وعيناها بركتين سوداوين كبيرتين. كان الكهل يندفع وَجِلاً مذعورا وبارتياع فوق السياج. قال الفتى:

- أخشى أنها قَتَلَتْهَا.

كان الكهل يصدر ضجيجا منتحبا غريبا بينما كان يتحرك بعجلة فوق السياج. وصاحت مارش وهي تجفل على نحو كهربائي:

- ماذا!..

فردد الفتى قائلا:

- أجل. على ما أخشى.

كانت مارش تتقدم إلى الأمام. وكان الفتى فوق السياج قبل أن تصل اليه. سألته في صوت حاد:

- ماذا تقول؟ قَتَلَتْهَا؟؟؟

أجاب بنعومة:

- أخشى ذلك.

وازدادت شحوبا وخوفا. ووقف الاثنان يواجه كل منهما الآخر. وحدقت عيناها السوداوان إليه بآخر نظرات المقاومة. وبدأت بعدئذ وفي آخر إخفاق معذّب تستحيل رمادية اللون وتبكي بطريقة صغيرة مرتغشة لطفل لا يريد أن يبكي، ولكنه ضُرِبَ من الداخل، وراح يطلق رعدة النشيج الصغيرة الأولى تلك، والتي هي ليست على الرغم من ذلك بكاء، على نحو جاف وخائف. كان قد ربح. وقفت هناك عاجزة على نحو مطلق وهي ترتجف في تنهداتها الجافة، وفمها يرتعش بسرعة. وبعد ذلك، وكما يحدث لطفل، ومع قليل من الصخب جاءت الدموع والألم المبرِّح الأعمى للبكاء غير المنظور. وانهارت على العشب وجلست هناك ويداها على صدرها وقد رُفِعَ وجهها في بكاء متشنج أعمى. وقف فوقها وهو يخفض بصره إليها صامتا، شاحبا مستمرا في التظاهر. ولم يتحرك قط بل خفض بصره إليها. ووسط عذاب المشهد بكامله، عذاب قلبه وأحشائه هو، كان مسروراً لأنه قد ربح.

بعد وقت طويل انحنى عليها وأخذ يديها. وقال بنعومة:

- لا تبكي!.. لا تبكي.

ونظرت إليه رافعة بصرها والدموع تترقرق من عينيها نظرة عجز وخضوع لا معنى فيها. وهكذا حدقت إليه وكأنها مكفوفة البصر، رافعة مع ذلك بصرها إليه. لن تتركه مرة أخرى أبدا. لقد فاز بها. وقد عرف ذلك وكان مسرورا، لأنه كان يريدها لحياته. ينبغي أن تحصل حياته عليها. لقد فاز بها الآن. كان هذا ما يجب أن تحصل حياته عليه.

ولكن إذا كان قد فاز بها، فإنّه لم يحصل عليها بعد. وتزوجا في عيد الميلاد كما كان قد خطط، وحصل مرة أخرى على إجازة عشرة أيام. وذهبا الى «كورنوول»، إلى قريته هو الواقعة على البحر، فلقد أدرك أنه كان من المريع بالنسبة لها أن تبقى في المزرعة بعد الآن.

لكنها وعلى الرغم من أنها كانت تنتمي إليه، وعلى الرغم من أنها كانت تعيش في ظله وكأنها لا تستطيع الابتعاد عنه، لم تكن سعيدة. لم تكن تريد أن تتركه: ومع ذلك لم تشعر بالحرية معه. كان كل شيء حولها يبدو وكأنه يراقبها، وكأنه يضغط عليها. كان قد فاز بها، وحصل عليها إلى جانبه، كانت زوجته. وهي ـ كانت تنتمي إليه وقد عرفت ذلك. إلاّ أنها لم تكن مسرورة. وكان لا يزال مُحْبَطاً. لقد أدرك أنه على الرغم من زواجه منها وامتلاكه لها بكل طريقة ممكنة ظاهريا، وعلى الرغم من أنها كانت تريده أن يمتلكها، كانت تريد ذلك ولا شيء سوى ذلك، إلاّ أنه الآن ومع ذلك لم ينجح تماما.

كان شيء ما مفقودا. وبدلا من أن تتمايل روحها بحياة جديدة، بدت تقنط، تنزف، وكأنها جريحة. كان من عادتها أن تجلس وقتا طويلا ويدها في يده، وهي تسرح بنظرها الى البحر. كان في عينيها القاتمتين الخاليتين من التعبير نوع من الجراح وكان وجهها يبدو شاحبا قليلا. إذا تحدث اليها، التفتت اليه بابتسامة جديدة باهتة، الابتسامة الصغيرة الغريبة المرتعشة لامرأة ماتت في طريقة الحب القديمة، ولا تستطيع أن ترتفع تماما الى الطريقة الجديدة. كانت لا تزال تحس أنه ينبغي عليها أن تفعل شيئا ما، أن تمط نفسها في اتجاه ما. ولم يكن ثمة ما تفعله، ولا اتجاه تَمُطُّ نفسها فيه.

لم يكن في مقدورها تماما أن تقبل الحَجَبَ الذي وضعه حبه الجديد عليها. ولو كانت عاشقة لوجب عليها أن تبذل نفسها حبا بطريقة ما. وشعرت بحاجة أيامنا الماسّة لأن تبذل نفسها في الحب. لكنها كانت تعرف في الحقيقة أنه لم يعد ينبغي عليها أن تبذل نفسها في الحب بعد الآن. إنّه لن يسمح بالحب الذي يبذل نفسه باتجاهه هو. كان ذلك يجعل جبينه يكفهر. كلا. إنه لن يسمح لها أن تبذل حبها في اتجاهه. كلا. كان عليها أن تكون سلبية، أن تذعن، وأن تكون مغمورة تحت سطح الحب. كان عليها أن تكون كالطحالب البحرية التي شاهدتها عندما كانت تنعم النظر الى الأسفل من القارب، وهي تتمايل باستمرار على نحو رقيق تحت الماء، بجميع أليافها الشعرية التي تنتشر برقة على المَدِّ، حساسة، حساسة بكل ما للكلمة من معنى، ومتفتحة ضمن البحر الظليل، ولا ترتفع لتنظر قُدُماً فوق الماء أبدا، أبدا ما عاشت. لا تنظر قُدُماً من البحر أبدا أبدا حتى تموت، وعندئذ فقط تنجرف جثثا على السطح. لكنها فيما كانت تعيش كانت دائما مغمورة، دائما تحت الموجة. قد يكون لها تحت الموج جذور قوية، أقوى من الحديد، قد تكون متماسكة وخطيرة في تموجها الناعم ضمن المَدِّ. قد تكون أقوى تحت الماء، وأكثر صمودا في وجه الإتلاف مما هي عليه أشجار السنديان المقاومة على الأرض. ولكن ذلك كان دائما تحت الماء، دائما تحت الماء. وهي، كونها امرأة، ينبغي أن تكون كذلك.

ولشدَّ ما اعتادت على النقيض تماما. كان يتحتم عليها أن تولي كل الاهتمام للحب والحياة، وكل المسؤولية. ويوما بعد يوم كانت مسؤولة عن اليوم التالي، عن السنة التالية: عن صحة وسعادة ورفاهية عزيزتها «جيل». يقينا، بطريقتها الصغيرة الخاصة، كانت قد أحست نفسها مسؤولة عن رفاهية العالم. وكان هذا حافزها الكبير، هذا الإحساس الرفيع بأنها كانت، في عالمها الخاص الصغير، مسؤولة عن رفاهية العالم.

وكانت قد أخفقت. وعرفت، حتى في طريقتها الصغيرة، أنها كانت قد أخفقت. أخفقت في أن تفي بمطالب شعورها الخاص بالمسؤولية. ولَشدَّ ما كان ذلك

صعبا. ولَشَدَّ ما كان يبدو جليلا وسهلا في البداية. وكلما ازددْتَ محاولةً أصبح أكثر صعوبة. كان يبدو من السهل جدا أن تجعل مخلوقا تحبه سعيدا. وكلما ازددتَ محاولةً ازداد الإخفاق سوءا. كان ذلك مريعا. كانت طوال حياتها تحاول الوصول، تحاول الوصول، وما وحاولت الوصول إليه كان يبدو قريباً جداً إلى ان امتدت إلى أقصى حد لها. وعندئذ كان دائماً بعيداً عن متناولها.

دائما بعيدا عن متناولها، بغموض، بعيدا عن متناولها على نحو لا يمكن فهمه، وتُرِكَتْ مع العدم في النهاية. الحياة التي حاولت الوصول إليها، والسعادة التي حاولت الوصول إليها، والرفاهية التي حاولت الوصول إليها، كلها كانت تنسلُّ متراجعة وتصبح زائفة كلما أمعنت في مد يدها. كانت تريد هدفا ما، حقيقة مطلقة ما، ولم يكن ثمة شيء من ذلك. دائما محاولة الوصول الشنيعة هذه، محاولة الوصول، الكفاح من أجل شيء قد يكون وراء متناول اليد تماما. حتى أن تجعل جيل سعيدة. وكانت مسرورة لأن جيل ماتت. فقد أدركت أنه لم يكن في مقدورها أبدا أن تجعلها سعيدة. وكان من عادة جيل أن تُبْرِيَ نفسها وتزدادَ نحولا فنحولا، وضعفا فضعفا. وازدادت آلامها سوءا بدلا من أن تنقص. ولسوف يبقى الأمر كذلك إلى الأبد. كانت مسرورة لأن جيل ماتت.

ولو كانت جيل قد تزوجت رجلا لبقي الأمر على حاله تماما. إنَّ المرأة تناضل، تناضل لِتسعد الرجل، تناضل ضمن حدودها الخاصة من أجل رفاهية عالمها. ودائما تحرز الفشل. نجاح أحمق صغير في المال أو في الطموح. ولكنْ في النقطة ذاتها، التي لَشَدَّ ما أرادت فيها النجاح وفي الجهد المبرِّح لتجعل من كائن بشريٍّ محبوبٍ سعيدا وبالغا درجة الكمال، كان هناك الفشل فاجعا على وجه التقريب. كنتَ تريد أن تجعل محبوبك سعيدا، وكانت سعادته دائما تبدو ممكنة الانجاز. لو أنك فقط قمتَ بهذا العمل، أو ذاك، أو الآخر. وقمتَ بهذا وذاك والعمل الآخر بكل إخلاص، وفي كل مرة كان الفشل يزداد شناعة قليلا. في مقدورك أن تحب نفسك حتى التمزيق، وتناضل وتجهد نفسك حتى العظم، وستسير الأمور من سيء إلى أسوأ، من سيء إلى أسوأ حيثما تذهب السعادة. خطأ السعادة الشنيع.

وكانت مارش المسكينة في رغبتها الطيبة ومسؤوليتها قد أجهدت نفسها حتى بدا لها أن الحياة برمتها وكل شيء كانت هاوية عَدَمٍ مُرِيعَة. وكلما حاولتَ الوصول الى زهرة السعادة القَدَرِيَّة والتي ترتعش في غاية الزرقة والجمال في شِقٍّ هو وراء متناول قبضتك تماما، أصبحت مدركا وعلى نحو مخيف شَفَا الكارثة المريعة والشنيعة التي تقع إلى الأسفل منك، والتي ستغوص فيها على نحو محتوم، وكأنما الى جحيم لا قرار له، لو حاولتَ الوصول إلى ما هو أبعد من ذلك. وتقطف زهرة إثْر زهرة ـ وليست هي الزهرة المنشودة أبدا. أما الزهرة نفسها، فكأسها هاوية مريعة، إنها جهنم التي لا قرار لها.

وهذا هو التاريخ الكامل للبحث عن السعادة، سواء كانت سعادتك أم سعادة شخص آخر هي التي تريد الفوز بها. إنها تنتهي، ودائما تنتهي، في الحس الشنيع بالعدم الذي لا قرار له والذي ستهوي فيه على نحو محتوم لو أنك أمعنت في التوتر.

والنساء؟؟ أيّ هدف تستطيع أية امرأة أن تتخيله غير السعادة؟؟ فقط السعادة لنفسها وللعالَم أجمع. ذلك ولا شيء آخر. وهكذا تأخذ المسؤولية على عاتقها وتنطلق في اتجاه هدفها. تستطيع أن تراه هناك، عند سفح قوس قزح. أو تستطيع أن تراه وراء ذلك قليلا، في المنطقة النائية الزرقاء. وليس أبعد من ذلك. ليس أبعد من ذلك.

ولكن نهاية قوس قزح هاوية لا قرار لها تستطيع أن تهوي نازلاً فيها إلى الأبد دون أن تصل، والمنطقة الزرقاء حفرة فارغة تستطيع أن تبتلعك وكل جهودك في فراغها، ومع ذلك ليس ثمة ما هو أكثر فراغا منها. أنت وكل جهودك.

وهكذا، وَهْمُ السعادة التي يمكن إحرازُها!..

كانت مارش المسكينة قد انطلقت على نحو رائع جدا باتجاه الهدف الأزرق. وكلما أوغلت وأوغلت في الابتعاد، أصبح الإدراك بالفراغ أكثر ترويعا. عذاب، وجنونٌ في النهاية. وكانت مسرورة لأن ذلك انتهى. كانت مسرورة لأن تجلس على

الشاطىء وتنظر نحو الغرب الى البحر، وتعلم أن التوتر الكبير قد انتهى. ولن تجهد نفسها أبدا بعد اليوم من أجل الحب والسعادة. كانت جيل ميتة بأمان. جيل المسكينة، جيل المسكينة. لا بد وأنه أمر عذب أن يكون الإنسان ميتا.

من ناحيتها لم يكن الموت قدرها. ولسوف يتحتم عليها أن تترك قدرها للفتى. ولكن بعدئذ، الفتى. كان يريد أكثر من ذلك. كان يريدها أن تمنح نفسها بدون دفاعات، أن تغوص وتصبح مغمورة فيه. وهي، هي كانت تريد أن تجلس ساكنة كامرأة على آخر المعالم، وتراقب. كانت تريد أن ترى، أن تعلم، أن تفهم. كانت تريد أن تبقى لوحدها: وهو إلى جانبها. وهوا.. لم يكن يريدها أن تراقب بعد الآن، أن ترى بعد الآن، أن تفهم بعد الآن. كان يريد أن يَحْجُبَ روحها الأنثوية، مثلما يحجب الشرقيون وجه المرأة. كان يريدها أن تسلِّمَ نفسها له، وأن تكرس روحها المستقلة للنوم. كان يريد أن يسلبها كل جهودها، كل ما كان يبدو أنه مبرر وجودها. كان يريد أن يجعلها تخضع، وتستسلم، وتجتاز خارجة على نحوٍ أعمى من كل وعيها المتقد. كان يريد أن يسلبها وعيها، ويجعلها امرأته فحسب. امرأته فقط.

وكانت متعبة جدا. متعبة جدا كطفل يريد أن يذهب للنوم، ولكنه يقاتل ضد النوم وكأن النوم هو الموت. وبدت تمد عينيها على نحو أكثر اتساعا في الجهد والتوتر العنيدين للبقاء مستيقظة. سوف تبقى مستيقظة. سوف تعلم. سوف تفكر مليا وتحكم وتقرر. وستأخذ عنان حياتها الخاصة بين يديها هي. ستكون امرأة مستقلة حتى النهاية. ولكنها كانت متعبة جدا، متعبة جداً من كل شيء. وبدا النوم قريبا. وكان ثمة راحة هائلة في الفتى. مع ذلك فقط مدت عينيها أكثر فأكثر اتساعاً وهي تجلس هناك في محراب الجرف(*) البرية العالية في «كورنوول» الغربيّة، وتتفحص البحر الغربي. بعيدا الى الغرب وكندا وأمريكا. لسوف تعرف ولسوف ترى ما يجري قُدُماً. أما الفتى الذي كان يجلس الى جانبها، وهو يحدق الى النوارس في الأسفل، فقد كانت

(*) الجُرُف: منحدر صخريٌّ شاهق وبخاصة عند الشاطىء. المترجم.

هنالك سحابة بين حاجبيه، وتوتُّرٌ استياءٍ في عينيه. كان يريدها نائمة بسلام في داخله. كان يريدها في سلام نائمة في داخله. وها هي ذي تُحْتَضَرُ من جَرَّاءِ يقظتها. مع ذلك لن تنام: كلا، أبدا. كان يفكر أحيانا ويمرارة أنه كان ينبغي عليه أن يتركها وشأنها. لم يكن ينبغي عليه أن يقتل بانفورد. كان يجب أن يترك بانفورد ومارش تقتل كل واحدة منهما الأخرى.

ولكن ذلك كان مجرد نفاذ صبر: وكان يعرف ذلك. كان ينتظر، ينتظر أن يذهب الى الغرب. كان يتوق توقا موجعا وفي عذاب تقريبا الى مغادرة انكلترا، والذهاب غربا والابتعاد بمارش. أن يغادر هذا الشاطىء!.. كان يعتقد أنهما، عندما يعبران البحر، وعندما يغادران انكلترا هذي والتي لَشَدَّ ما كان يمقتها لأنها لدغته بالسم بطريقة ما على ما يبدو، فسوف تذهب مارش للنوم. ستغلق عينيها أخيرا وتستسلمَ له.

وعندئذ سيحصل عليها، وسيحصل على حياته الخاصة في النهاية. واغتاظ عندما أحس أنه لم يحصل على حياته الخاصة. ولن يحصل عليها أبدا حتى تستسلم وتنام في داخله. وعندئذ سيحصل على حياته الخاصة برمتها كشاب وذَكَرٍ، وستحصل هي على كل حياتها الخاصة، كامرأة وكأنثى. ولن يكون ثمة المزيد من هذا التوتر الشنيع. ولن تكون رجلا بعد الآن، أو امرأة مستقلة بمسؤولية رجل. كلا. بل سيتعين عليها أن تسلِّمَه حتى مسؤولية روحها الخاصة. كان يعرف أن الأمر كذلك، وقد صمد ضدها بعناد، منتظرا الاستسلام.

قال لها وهما يجلسان بين الصخور على الجُرُف:

- سنشعرين بالتحسن حالما نعبر البحر الى كندا في اوروبا.

ونظرت بعيدا إلى أفق البحر وكأنه ليس حقيقيا.

ثم نظرت اليه بالنظرة المتوترة الغريبة لطفل يكافح ضد النوم:

- حقا!..

أجاب بهدوء:

- أجل.

وانسدل جفناها بحركة بطيئة وقد أثقلها النوم دون وعي. ولكنها فتحتهما مرة أخرى لتقول:

- أجل. قد أحسن. لا أستطيع القول. لا أستطيع القول ماذا ستكون عليه الحال في اوروبا.

قال بألم في صوته:

- ليتنا نستطيع الذهاب قريبا.

من منشوراتنا أيضاً

١ ـ العذراء والغجري ـ لورانس ـ ترجمة زكي الأسطه.
٢ ـ الجبانة ـ شاركدي امرة ـ ترجمة نافع معلا.
٣ ـ سيول الربيع ـ همنغواي ـ ترجمة محمود قدري.
٤ ـ الرب لم يسترح في اليوم السابع ـ رشاد أبو شاور.
٥ ـ هزائم مبكرة ـ نبيل سليمان.
٦ ـ ثلج الصيف ـ نبيل سليمان.
٧ ـ السجن ـ نبيل سليمان.
٨ ـ الأبتر ـ ممدوح عدوان.
٩ ـ الظل والوتر ـ كاربانتييه ـ ترجمة علي الأشقر.
١٠ ـ الفيضان ـ حيدر حيدر.
١١ ـ التموجات ـ حيدر حيدر.
١٢ ـ قيس يبكي ـ نبيل سليمان.
١٣ ـ التمريض في الجراحة ـ توفيق ورديان.

دار الحوار للنشر والتوزيع

سورية ـ اللاذقية ـ ص ب ١٠١٨ ـ هاتف ٢٢٣٣٩.